الاسلام

[illegible]

COLUMBIA UNIVERSITY
THE
LIBRARIES
IN THE CITY OF NEW YORK
GENERAL
LIBRARY

البهى الخولى

الإسلام

لا شيوعية ولا رأسمالية

العمل والعمال

دار الفتح

البهي الخولي

الإسلام

لا شيوعية ولا رأسمالية

العمل والعمال

BP
173.75
.K482

إهداء الكتاب

إلى أخى الذى أحبه وأذهب فى حبه إلى أبعد مدى .
واسانى حين تنكر لى الناس . . . وأقبل علىّ فى غير معرفة ، وهو يعلم أنه الخطر المحقق .

إلى المروءة الجزلة ، والطبع الأبى المكتمل ، والرجولة التى لا يلحقها ذرة من هوان .

إلى النفس الزكية ، والنفحة العلوية ، والسماحة التى تنطف نورا كأنها قناع رحمة الله .

إلى أخى الذى أحبه ، ولا أسميه إجلالا وتكرمة ؟

البرهى الحولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ومن والاه .

وبعد ، فها هى ذى الطبعة الثانية للرسالة الأولى من رسائل « الإسلام : لاشيوعية ولا رأسمالية » .

وقد قرأ حضرات القراء فى نهاية الطبعة الأولى وعداً بمواصلة إصدار بقية حلقات هذا المبحث .

وقد أعان الله سبحانه على جمع مادة الموضوع من الآيات والأحاديث ، وآراء الصحابة وأحكام الفقهاء ، وشواهد التاريخ وغيرها من مظانها الكثيرة .. وبعد أن بذلنا فى ترتيبه وتبويبه وكتابته من الوقت والجهد ما بذلنا نقلت من طنطا إلى القاهرة ، ولم يتح لى الاستقرار بعدذلك ، إذ صدر قرار حل الإخوان المسلمين ثم قرار اعتقالى بمعتقل الها كستب والطور ؛ ثم إلقائى فى السجن . . وقد استغرق ذلك كله عامين تقريباً ، كانت البلاد خلالها فى ذعر متصل : يصبح المرء فلا يدرى أيمسى فى أهله أم تحت سياط الجلادين ، ويمسى فلا يدرى أيصبح فى بيته أم فى سجن من السجون أو معتقل من المعتقلات ! ؟ .

وكان أحد فضلاء الأصدقاء تفضل فأخذ مسودات الكتاب عنده مخافة أن تبعثرها المحنة ، أوتذهب بها إلى حيث لاتعود . . . فلما أذن الله سبحانه بخروجى من السجن ، وطلب إلى بعض الإخوان أن أفى لهم بما وعدت ، عدت إلى هذا الصديق أسأله . وكانت حيرة ووجوم ، أدركت من خلالها أن هول المحنة ما كان يسمح بالإبقاء على آثار شخص جىء به من الطور ليزج به فى السجن متهماً بقلب نظام الحكم .

وألفيتنى مضطراً إلى أن أعود إلى بدء ما كنت قد انتهيت منه . ووفق الله سبحانه فانتهيت من إعداد الرسالة الأولى ، بعد أن أضفت إليها مايزيد على نصف ما كانت عليه ، وأسأله سبحانه أن يمن بالعون والتوفيق فيما بقى .

وسننشر ما يمن به الله سبحانه فى رسائل قصيرة ، متتابعة تتولى كل منها علاج موضوع مستقل بذاته ، ملتزمين فى نهجنا عرض وجهة النظر الإسلامية البحت .

ومما يقع فيه بعضهم أنهم يحاولون تطبيق الإسلام ونظرياته على ما عرفوا من مذاهب ونظريات جديدة وافدة من الغرب ، فى الحكم ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، ليقولوا إن هذه النظرية فى الإسلام هى نفس المبدأ الذى ينادى به أنصار نظرية كذا فى مكان كذا . وكثيراً ما يعتسفون فى التأويل والتدليل بقصد حسن أو غير حسن ، حتى يبدو لك فعلهم كأنه محاولة

لصب الإسلام فى تلك القوالب الغربية . وهذا نهج مجانب للإنصاف العلمى من ناحيتين :

الأولى : أن الإسلام أقدم ظهورا وتطبيقا من كل هذه التى يتهافت عليها المتهافتون اليوم ، فقد عرفته البشرية منذ أكثر من ألف عام .. ومن حق هذه الحقيقة علينا أن نقيس هذا الجديد الوافد ، على القديم المقيم بيننا ؛ فما وافقه منه قلنا إنه من الإسلام ؛ وما خالفه كان له حكم آخر . . أما أن نحتفل بكل وافد علينا فى ترحيب وحماسة ، ثم نلتفت لنقول للإسلام إنك تشبهه فى كيت وكيت ، وعليك أن تحور كذا وكذا من ملامحك لتكمل المضاهاة بينك وبينه ، فهو مسخ للإسلام ومجافاة للحق وروح الإنصاف العلمى .

أما الثانية : فإن الإنصاف كان يقتضيهم أن يرسموا صورة كاملة للإسلام فى الموضوع أو الناحية التى يحبون المقابلة بينها وبين غيرها ، صورة كاملة الأجزاء واضحة التقاسيم ، مدعمة بالنصوص والأدلة من القرآن والحديث وواقع التاريخ فى الحقبة الإسلامية الزاهرة ، مصورة تصويرا علمياً لا عاطفياً ، يبين موقعها الأصيل من سائر تعاليم الإسلام ، وارتباطها بغايته العليا ، بحيث يقرؤها القارىء فيتجمع فى ذهنه ضوء واضح يبين حقيقة رأى الإسلام فى الموضوع الذى قرأه ... أما خطف آية ، أو تلقف فكرة والذهاب فى تأويلها ومسخ أعضائها كل مذهب ، ليقال أن

الإسلام ضاهى كذا أو كذا من المبادىء الحديثة — فأسلوب لا يخدم به العقل ، ولا يتحقق به الوعى ، ولا يرضى عنه الحق .

نعم سنلتزم جهد الطاقة عرض وجهة النظر الإسلامية البحت غير متأثرين بمذاهب الآخرين ، بل غير متأثرين باصطلاحاتهم التى التزموها فى هذه المذاهب ؛ حتى يتخذ الرأى الإسلامى مكانه المستقل فى الأذهان ، ويبدو فى فلسفته الدقيقة ذا كيان متميز بصفته الربانية ، واصطلاحاته الإسلامية الواضحة .

وسيرى القارىء الكريم أنى لن أعرض لشىء من هذه المذاهب المستحدثة بتأييد أو تفنيد ، إلا إذا أحسسته يلامسنى ، أو يعترض طريق وأنا أتولى عرض ما أنا بسبيله من حقائق الإسلام .

وسيرى كذلك — أو قد يخيل إليه — أننا قد خصصنا الشيوعية بنصيب من حملات النقد أوفر من نصيب غيرها . . .

سيرى ذلك أو يخيل إليه ، لأن النزعة السائدة هى تصويب كل السهام أو أكثرها إلى الرأسمالية الباغية . . فليعلم أن ذلك لم يخطر لى ببال . . . وليعلم أن كل ما رسمه لنا القرآن من صور الطغيان الرأسمالى الذى بلغ حد الكفر وادعاء الربوبية ماثل فى أذهاننا ، وهو كفر لا يقل شناعة فى موازين الإسلام عما تبشر به الشيوعية من إلحاد وإنكار لوجود الله .

فإذا وجد القارىء أن الرأسمالية الباغية تستأثر بأوفر حظ من

الموجدة والغيظ فى قلبه ، فليس ذلك لأن الشيوعية أهون ضررا منها ، بل لأن رصيد الكوارث الذى يهدم كياننا ويصدع أفئدتنا ويكوى أكبادنا ، هو رصيد درج إلينا من أعشاش الرأسمالية الباغية وأوكارها التى باضت فيها وأفرخت ، لا من أعشاش الشيوعية التى تحاول أن تبنى أوكارا على أنقاض أوكار ، وأحجارا مكان أحجار .

وحين يشق المسلم طريقه بين هذين المذهبين لايستطيع إلا أن يسوى بين الكفر القادم وشناعة الشر المقيم ، دون أن يرى للطاغوت المحدث أى فضيلة على الطاغوت القديم . !.

ونحن لانخشى الشيوعية أبدا ولا نقيم لها وزنا باعتبارها نظاما اقتصاديا ، فقد تولت نواميس المجتمع وقوانين الطبيعة مقاومته فى عقر داره ، وأرغمت قادته على التعديل منـــه ، مسايرة لطبائع الأشياء وغرائز البشر ؛ ولكننا نخشى على عقائد شبابنا أن يتسرب إليها الوهن من خلال البروق الخادعة . . وعقيدة الشباب هى أثمن ما نحرص عليه ، فما المرء إلا عقيدته ، فإذا عاش بغير عقيدة ، فهو رماد منطفىء ، وغبار هامد ، وتفاهة سارحة إلى غير مصير .

ذلك هو النظر الصحيح ، أو نظر الإسلام إلى الشيوعية والرأسمالية الباغية ؛ فإننا نمقت الرأسمالية بدون شك ، ولكن يجب أن لا يكون بغضنا الصارخ لها صارفا عن بغض الأخرى .

وكفاح الظلم الواقع من الرأسمالية فريضة تستمد قدسيتها من الدين ، ولكن على ألا يلهينا عن مكافحة الإلحاد الزاحف من بعيد ..

ذلك هو ما أردت التنبيه إليه ، حتى لا يسبق إلى وهم أحد أنا نخص الشيوعية بأكثر مما نخص عديلتها الكريهة ، أو عدوتها اللدود .

وأسأل الله أن ينير بصائرنا بنور الإسلام ، ويبصرنا بحقيقة تعاليمه ، ويعلق هممنا بأهدافه وغاياته ، وأن يثير الراكد من عزائمنا ، ويبث فى قلوبنا الغيرة على مقدساته الغالية ، من الحرية الصادقة ، والتوحيد الخالص ، والتراحم العام الذى ينظم الجميع تحت لواء الأخاء ، والحب ، والتعاون على البر . . والتقوى . . آمين ؟

القاهرة فى { ذى القعدة سنة ١٣٧٠ هـ / أغسطس سنة ١٩٥١ م

البهى الخولى

مقدمة الطبعة الأولى

ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا

وصل اللهم على إمام الهدى وقائد الخير ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ومن تبع هداه إلى يوم الدين :

وبعد : فإن شباب هذا الجيل من العمال والطلبة ، تهفو آمالهم ، وتتناجى ضمائرهم ، وتجيش مشاعرهم ، وتتلفت أذهانهم إلى عهد جديد من الأنصاف ، والمساواة ، والعدالة ، والعزة ، والحرية .

عهد يتجدد فيه كل ماعندنا من أوضاع بالية ، وأفكار عتيقة ، وأخلاق وضيعة ، واتجاهات قائمة على الأنانية والاستغلال الدنيء .

عهد نهضة قوية حية شاملة ، يتجه فيها المجتمع نحو العمل الجدى المثمر فى كل ميدان ، ونحو التكافل الذى يرعى حقوق الفقراء والضعفاء ، رعاية حازمة صريحة وافية .

أو قل عهد ثورة مباركة ؛ ثورة على الظلم ، والرشوة ، والمحسوبية ، والجبن ، والذل ، والكسل ؛ ليحل محل هذا كله أضداده من الفضائل العملية النظيفة .

تتجه آمال هذا الجيل إلى هذه الغاية وقد ترددت فى أوساطهم وأنديتهم المختلفة كلمات الشيوعية ، والرأسمالية ،

والاشتراكية ، ونحوها مما تسرب إلينا من أوهام الغرب وضلالاته التى لا تقوم على أساس .

وهذه كلمات موجزة سهلة ، أردنا بها فى زحمة المبادىء والنظريات ، أن نجلو للأبصار والبصائر شيئاً من هدى الإسلام كنظام اجتماعى أهمله أهله ، ونسوا ما فيه من جمال وقوة وخير .

ونريد هنا أن نؤكد للشباب أن كل نهضة تتنكر لماضيها المجيد وتراثها التليد ، وتتهافت بلا قيد ولا شرط على الجديد الذى عند غيرها ، هى نهضة ذليلة عمياء .

ذليلة ، لأنها احتقرت نفسها وآمنت بغيرها .

عمياء ، لأنها لم تبصر ولم تميز ما فى تراثها من خير وشر .

والذلة والعمى ، لا يصلحان لنهضة عزيزة مأمونة السير ، ولا يفضيان إلا إلى العبث والخلل والفوضى .

وهنا يفرض علينا الواجب أن نعتز بماضينا ، وأن ننظر إلى تراثنا وتقاليدنا نظرات فاحصة ناقدة مميزة ، فما كان منه صالحاً أبقينا عليه ، وأخذنا به ، وما كان غير ذلك كان لنا معه شأن آخر ...

وعلى هذا الأساس المتزن نقبس من حضارة الآخرين كل ما نراه صالحاً من أنظمة ومبادىء .

والإسلام هو ماضينا المجيد ، وتراثنا العتيد وعليه قامت كل

تقاليدنا الكريمة ، فما حسن أن نغض الطرف عنه ونحن على أبواب هذا العهد الجديد .

فإذا وجدت أيها الأخ فيما نعرض عليك كلاما يرضى طموحك ، ونظاماً يسعد آمالك . فالعزة كل العزة ، أن تعتصم به ، وأن تدعو إليه لأنك إنما تعتز بقوميتك ، وتصل نهضتك الحديثة . بالعروق الحية النابضة فى تاريخك القديم . . . أما إن وجدت غير ذلك — وهو ما لا نعتقده — فإنا نسأل الله أن ينير لك الطريق الحق ، وأن يهدينا وإياك سواء السبيل .

طنطا : ذو القعدة — ١٣٦٦
سبتمبر — ١٩٤٧

البهى الخولى

الباب الثانى

العمـــل والعمال

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه ، وإليه النشور ﴾ سورة الملك .

مائدة وقانون

أما المائدة فهى مائدة الله التى أخرج لعباده ، وجعلها حافلة بالمطاعم والمشارب والمنافع . ثم أباحهم إياها بمحض فضله وكرمه ووجه لهم رقاع الدعوة إليها على يد رسله وأنبيائه : « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا » . وأما القانون ، فهو نظام هذه المائدة ، وأسلوب الانتفاع بما فيها ، وتناول ما عليها ، فكيف نأكل من هذه المائدة ؟ .

وليس فى الأمر صعوبة ولا تعقيد ، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق الأرض على غرار الجنة ، يجلس أصحابها على الأرائك ، ثم يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأباريق وكأس من معين ؛ فيها مالذ وطاب من لحم وفاكهة وماء من سلسبيل ، لم يجعل أشجارها

ولا مشقة فى فهمها ، وقد سجلها القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أنداداً ، ذلك رب العالمين » .

فهى إذاً ملك الله سبحانه ، ملك له بحق الخلق والإيجاد ، لا بحق البيع والشراء أو الميراث أو وضع اليد : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده » « وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

وإليك حقيقة ثانية : هى أننا نحن أبناء هذه الأرض ، منها خلقنا الله ، ومنها نبتت لحومنا ونشأت أبداننا .

وليس فى ذلك شك ، فهو الأمر الواقع ، والمشاهد الذى لا يكابر فيه أحد . . وإلى هذه الحقيقة أو البدهية الأزلية أشار القرآن الكريم بقوله : « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

.. « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » : « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض » .

وإليك ثالثة من هذه الحقائق ، أن الله إذ خلقنا منها وأوجدنا عليها لم يتركنا بمضيعة نهلك فى مجاهلها من الجوع ، بل أنزل عليها الماء ، وفجره خلالها ، وسلكه فيها ينابيع ، وأحيا به الأرض الميتة وأنبت فيها ما تقوم به حياتنا .

وهذا قول سهل ، لا يحتاج فى فهمه إلى كد القرائح ، وإجهاد

العقول ، وإليه أشار القرآن الكريم « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج »

مائدة :

ومعنى ما تقدم أننا بإزاء مائدة كبرى مدها الله سبحانه لخلقه وجعل لهم فيها كل ما يرون عليها من ألوان الطعام والزينة .

وبدهى أنه لا فضل لأحد منا على آخر فى هذه المائدة فهى فضل الله ، ورزقه لعباده : « كلوا واشربوا من رزق الله » وليس لإنسان كائناً من كان ، أن يدفع آخر عن هذه المائدة ، أو يحرمه حقه الأزلى الإلهى فيها .

فإذا وجدت قوة ما ، أو إنسان ما يعمل لحرمان آخر من هذا الحق ، فليس له جزاء إلا مقاومته بالقوة ، واستئصال شره بكل ما ملكت أيدى الأحرار من وسيلة مشروعة : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

لقد نصب الله هذه المائدة ، وزينها بكل رزق حلال ، ثم وجه

الدعوة إلى عباده جميعاً ، بدون استثناء أن يقبلوا عليها وأن يأكلوا منها : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً » .

فمن الفضول والوقاحة ، ومن الأنانية البغيضة ، أن يبذل جهد ما ، ليحال بين إنسان وحقه فى مائدة نودى إليها من السماء ، ومدتها الطبيعة بين يديه مداً ، « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ » .

إذاً فليعلم الجميع كباراً وصغاراً ، أن لكل إنسان فى هـــذه المائدة حقه الذى لا ينازعه فيه منازع ، أى حقه فى أن يحصل على مطالبه الضرورية للحياة .

ولو أن الناس فهموا هذه البدهية السهلة ، وعملوا بها ، وجعلوها أساساً للعدالة وتوزيع الحقوق ، لما كانوا اليوم فيما يعانون من فوضى وآلام .

كيف نأكل من هذه المائدة ؟

منذ وجد الإنسان وهو يرى نفسه أمام ألوان هذه المائدة وجهاً لوجه ، ويرى نفسه حراً فى تناول مايشاء منها .

ولو قنع الإنسان بتناول هذه الألوان كما هى على طبيعتها ، بدون تحوير فيها أو إدخال تعديل عليها ، لعاش فى أغلب الظن ، عيشة سلمية ، أو قريبة من السلم .

ولكنه لم يقنع بهذه العيشة الساذجة ، وفيه من غرائز الطموح مافيه ، فأخذ يعالج اللقمة التى تقيم أوده ، والثوب الذى يرد عنه عوادى الجو ، والمتاع الذى ينتفع به ، والأداة التى يستعين بها .

وأخذت علاقته بهذه الأشياء الطبيعية ، تنمو شيئاً فشيئاً وأخذت احتياجاته إليها تزيد وتتكاثر ، حتى وجد نفسه عاجزاً عن الوفاء بها جميعاً ، ومن ثم وجد نفسه شاعراً بضرورة التعاون بينه وبين غيره .

ومن هنا نشأ بين الأفراد ، والجماعات ، والطبقات ، ما نشأ على مر العصور من منافسة . . . واحتكاك . . . وأزمات . . . وثورات . . . وحروب . . . ونشأ تبعاً لذلك ، ما عرفه الناس قديماً وحديثاً من مذاهب سياسية ، وآراء اجتماعية معتدلة أو متطرفة .

شيوعية رأسمالية :

فتعسكر سلم الانسان كما ترى جاء من أننا لم نعرف كيف نأكل من هذه المائدة ، أو أننا لم نستطع إيجاد أساس للتعاون العملى العادل بين أفراد الناس وجماعاتهم لتحقيق هذه الغاية ، أو على تعبيراتهم الحديثة ، جاء التعكير من سوء علاقة الإنسان بالمواد الخام الطبيعية ، التى خلقها الله له ، ووجدها هو أمامه على ظهر الأرض أو فى جوفها .

ويرى الشيوعيون أن تناول الإنسان للمواد الخام ليعالجها ويصنع منها ما يشاء ، قد استلزم توزيعا للأعمال . كما استلزم بطول المران خبرة فى العمل لدى بعض الأشخاص ، وتخصصاً جاء بملكات فنية ممتازة . . . فأنتج هذا بتعاقب السنين ، أفراداً ممتازين أنتجوا مالم ينتج غيرهم ، وصار لهم من الأموال والممتلكات ماليس لسواهم ، ونشأ لهم من الحقوق والقوة ماسوغ لهم أن يستأثروا باستغلال كثير من المرافق ، وأن يدفعوا غيرهم عنها ، ويبعدوهم عن الانتفاع بها . . . أى نشأت الملكية المشئومة فى جانب والحرمان البغيض فى جانب آخر .

وتستمر سلسلة الفروض عند الشيوعيين حتى يقولوا :

إن المالكين بمالهم من قوة ، استطاعوا استخدام غيرهم وتسخيرهم فى مصالحهم لقاء أجر زهيد لا يكاد يفى بحاجاتهم الأولية .

هذه قصة الشقاء كما يتصورها الشيوعيون ، وهى القصة التى يبنون عليها مذهبهم فى محاربة الملكية ودستورهم الذى يقرر : أن يعمل العامل وينتج بقدر ما يستطيع ، ثم يأخذ من هذا الإنتاج فى النهاية بقدر ما يحتاج إليه ، حتى لا يتجمع فى يده على التوالى ، ما يعيد أسطورة الملكية المشئومة فى جانب . . . والحرمان البغيض فى جانب آخر .

فساد :

ولكى نرى فساد هذا الرأى ، يجب أن نكون مع الفطرة ونور الأزل .

للشيوعيين الحق فى استنكار استغلال الضعفاء ، ولكن هذا الاستنكار ليس وقفاً عليهم ، بل هو صوت ينبعث من كل نفس حرة وضمير أبى كريم .

ومقاومة هذا الاستغلال الدنىء واجبة ، ولكنها لا تكون بإلغاء الملكية ؛ بل بتجريد هؤلاء الأقوياء من كل جاه ، أونفوذ أو سلطان ، يطوع لهم البغى الذى يبغون . . . أى بإقامة السلطة العادلة ، التى تكف عدوان الأغنياء والأقوياء على حقوق الضعفاء ؛ وتقيم موازين العدل الدقيق بين كافة الطبقات .

أما الملكية بذاتها فليس من طبيعتها أن تنتج مثل هذاالعدوان فقد يملك الإنسان ولا يظلم . . . وقد يملك ويكون محسناً كريما ، وسمحا رحيما ، يفشى الخير ، والمواساة ، والسلم بين الناس . . .

فالملكية إذن — ليست فى حاجة إلى علاج أو مقاومة ؛ إنما يحتاج إلى العلاج والتهذيب ، غرائز الناس وما فى نفوسهم من نوازع الطمع ، والأنانية وحب الذات .

ومن الفساد الظاهر فى فلسفة الشيوعيين ، أنهم يتركون الرجل يعمل وينتج ، ثم لا يمكنونه آخر النهار من أن يستولى على ثمرة عمله ، بل يعطونه بقدر ما يحتاج إليه .

وقد يكون هذا الذى يحتاج إليه ، أقل من الإنتاج الذى أنتجه ولا يوازيه . . . وقد يكون أكثر .. ولا شك أنك تلمح ما فى الحالتين من شذوذ وخروج عن الوضع الطبعى المعقول . فنفس الإنسان أرضى ما تكون وأطيب ، حين ترى أنها جنت ثمار جدها فى الحلال ، واستحوذت عليه قليلا كان أو كثيراً

فأنت ترى أن البشرية فى حاجة إلى من يغنيها عن جهالة الشيوعيين ، كما هى فى حاجـــة إلى من يريحها من طغيان الرأسماليين ؛ فكلاهما نظام غير طبيعى . . . وإنما يتطرق الفساد إلى المجتمع حين تسير أموره على غير قانون الطبيعة وسنة الفطرة

وجوب مسايرة الفطرة :

والفطرة فى الإنسان ، هى مجموعة القوى الطبيعية ، والدوافع الأصيلة ، التى جهزه الله بها ، ليكون عنصرا عاملا مثمرا ، صالحا لعمارة الأرض على الوجه الذى يريد سبحانه .

وهذه القوى الفطرية ، هى التى يسمونها الغرائز :

وهى ذات أثر طيب مبارك ، إذا أحسن تهذيبها ، وتوجيهها ،

ولكنها قابلة للطغيان ومجاوزة حدود المنفعة ، إذا تركت بغير ضابط من عقل أو قانون ، أو إذا ألححنا عليها بما يضعفها ويكبتها ؛ فذلك تغيير لخلق الله ، ومسخ لفطرة الإنسان ، يصبح به المرء هيكلا هامدا فارغا من كل قوة تبعث على جلائل الأعمال . . .

ولسنا بصدد بيان هذه الغرائز وتحليلها ، وكيفية الانتفاع بها فذلك مرجعه إلى علم النفس ، ويكفى هنا أن نذكر منها :

(١) غريزة المحافظة على النفس ، أو حب البقاء .

(٢) السيطرة .

(٣) الملك والاقتناء .

(٤) الجنس .

(٥) التدين .

فإذا أردنا الخير لأنفسنا فلنجعل تشريعاتنا تشريعات لهذه الغرائز ، وتنظيماتنا الاجتماعية تنظيمات لهذه القوى ، أى تراعى فى هذه التشريعات دوافع الغرائز ، واتجاهات الميول الفطرية ... بحيث لا نضع قانونا أو نظاما إلا بعد أن نعرف الغرض منه ، وأى غريزة يتناول ، على أن يكون دستورنا فى التشريع دائماً هو الوقوف بهذه الغرائز عند الحد الوسط ، فلا نتملقها بالتدليل والطغيان ، ولا نرهقها بالكبت والحرمان .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا المنهج الحكيم هو منهج القرآن

ومنه تعلمناه وعنه نقلناه . . . وإنك حين تتبع تشريعات الإسلام الحنيف ، ترى أنها كلها جاءت لتنظيم فطرة الإنسان ، أى تنظيم غرائزه تنظيما عادلا حكيما ، يكفل خير الدنيا والآخرة . . وهذا سر خـــلود قوانين القرآن وصلاحيتها للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان .

أما أولئك الذين يضعون القوانين كيفما اتفق ، فهم سطحيون ، محجوبون عن السر ، وكذلك الذين يحدثون انقلاباتهم وتنظيماتهم لمجرد التخلص من وضع قائم ، فهم لا عبون بالنار ، ما داموا لا يراعون حساب هذه الغرائز فى عمارة الأرض وسلم الإنسان .

وهؤلاء الشيوعيون ، جاءونا بنظام عجيب متخاذل ، ينادى فى جرأة عجيبة ، أن يعمل كل بقدر ما يستطيع ، ثم يأخذ كل بقدر ما يحتاج ، ويرتبون على هذا تحريم الملكية ! !

فأى شىء فى هذا يساير غريزة من الغرائز .

يعمل العامل ويجد نهاره ، ثم تحجز عنه ثمرة عمله ، فأين غريزة التملك .

والعامل مفطور على المبـــاراة والمنافسة ، والتفوق على الأقران . . . فهل ترى فى هذا النظام ما يغذى هذه الميول . ؟ إن المنافسة يحركها ويذكيها ما يكون وراءها من مقابل . . . ولكننا نرى فى هذا النظام أنه . . . لا ثمر ، ولا مقابل ، ولكن . .

« جراية مقررة » أو « تعيين معلوم » يناله المرء بقدر ما يكفيه .

إن المنافسة تثير الهمم ، وتشحذ العقول وترقى بمستوى العلوم والفنون ، وتجعل المرء يدفع الحياة بيديه إلى الإمام ، وينفخ فيها من روحه ويمنحها قوة من قوته .

أكل ذلك يتأتى بغير إثارة القوى الغريزية ؟

إنهم — إذا — يفترضون الإنسان آلة صماء ، خالية من العواطف والمشاعر والميول ، وهو افتراض لن تستقيم به حال ، أو يستقر عليه نظام ، ما دام الإنسان إنسانا ، ولا تبديل لخلق الله .

ولا تقل لماذا انتصر هؤلاء على هتلر . . . فقد انتصروا من قبل على نابليون . . . وعامل النصر أيام الشيوعية هو عامل النصر سابقا أيام القيصرية .

ولقد طالما سمعنا هتلر يردد شكواه : إنا لا نحارب الروس ولكنا نحارب الطبيعة ، نحارب الثلج المميت ، والبرد الذى يجمد البنزين فى خزان الدبابة . . . وزد على ذلك ما أنهك الألمان فى حروب شمال أفريقيا ، وغرب أوربا . وتجمع قوى الأمريكان مع غيرها فى هذه الميادين . . . وزد عليه ما تدفق على الروس من عتاد الحلفاء الحربى تدفقا لم ينقطع له مدد . . هذا إلى الكثرة الهائلة فى السكان هناك .

ومع كل هذا فيجب ألا يفوتك أن هذا النظام لا يزال فى دور الحداثة عند أصحابه ، فلم يَفعل فعله فيهم بعد . . وقد بدأ الآن يفعل ويؤتى بواكيره ، وبدأ الناس يتهامسون بما فى داخل بلاد الروس من ضغط على أصحاب المشاعر والآراء الحرة ، وما يتعرضون له من سجن ونفى وتشريد . . بل إن القائمين بالأمر أنفسهم ، ما لبثوا أن تبينوا فساد ما هم عليه ، فبدءوا يتراجعون ، ووجدوا أنفسهم مكرهين على إباحة الملكية الفردية فى صور محدودة . . ويثيرون المنافسات والهمم بضروب المغريات التى كانت محرمة ، إذ أباح دستورهم الجديد تفاوت الأجور بتفاوت جودة العمل ومقداره .

وسوف تقهرهم الظروف . . « والتفاعلات الاجتماعية » على المزيد من التقهقر ، حتى تباح الملكية فى صورها الطبيعية العادلة ، أى حتى يضع كل عامل يده على ثمرة عمله الحلال بلا قيد ولا شرط .

ونحب أن لا يقع فى فهم قارىء أننا نخص الشيوعية وحدها بهذه الحملات ، فليست والله بأسمج فى نظرنا من الرأسمالية الباغية ، التى لا تفـــترق عن اللصوصية إلا فى بعض الصور والألوان .

وأنه ليس للإنسان إلا ما سعى :

فإذا أفلحنا فى سن التشريعات وإقامة النظم التى توجه قوى المرء إلى المصلحة فى تناسق ، وحكمة ، ألفينا علاقتنا بمتاع الأرض ، أو بالمواد الخام كما يقولون ، علاقة سهلة لا تعقيد فيها .

فميدان العمل مباح للجميع ؛ ينزل إليه كل ليطلب نصيبة ، بكل ما سلحته به الطبيعة من قوة وفن ؛ على أن يكون الميدان خاليا من كل المؤثرات الفاسدة ، ومن كل ما يغير عليه نظام طبيعته وعدالته ، بل على أن يرصد لحماية هذا الميدان من القوى الحازمة ، ما فيه غناء لحسم الشر وإقرار السلم . . فينال كل عامل أجر ما عمل ، أو ثمر ما عمل .

يناله كاملا ، غير منقوص منه ، ولا مزيدا عليه ، جارياً على سنة الجزاء العادل التى سنها الله تبارك وتعالى بقوله :

« وإن ليس للانسان إلا ما سعى » .

وهى سنة تحمل كل ما عرفت موازين الجزاء من عدالة فى الدنيا والآخرة :

١ — فلا جزاء لقاعد بلا سعى إلا الحرمان والهوان .

٢ — ومن أخذ بدون سعى ، فهو غصب وفساد ، وهو مجافاة لسنة الحياة .

٣ — ومن سعى ولم يأخذ ، فهو ظلم وحرمان ، وهو إفساد لعوامل التقدم والعمران .

٤ — ومن سعى وأخذ أقل مما له ، أو أكثر ، فهو نذير الجور الذى يثير الخلل ، ويعبث بكفتى الميزان .

فلا بد من السعى ... ولا بد من الجزاء عليه ... ولا بد من مماثلة الجزاء للعمل ومكافأته له ... ولن يضير المجتمع بعد ذلك أن تكثر الثروات فى أيدى العاملين ، وأن تتسع الممتلكات فى أيدى المالكين ، وأن ينبغ النابغون فى كل فن ، وأن يمهر الماهرون فى كل صناعة ، ما دام الجميع يبيتون فى ظل هذه العدالة الإلهية السابغة . .

وجوب التكافل الاجتماعى .

قال له صاحبه وهو يحاوره : إن كلامك هذا حسن من الوجهة النظرية ، وتستطيع به أن تجادل فتحرز شيئاً من النصر فى الجدل ، ولكنه إذا طبق عملياً ظهرت له عيوب ، بل ظهر له ما يشبه الكوارث الأليمة ، والضحايا التعسة . فقد ذكرت لنا أننا مدعوون إلى مائدة الله ، وأننا شركاء فى هذه المائدة ، وأن تصيب كل منا فيها ، مقدر بما يبذل من عمل ، فخبرنى عن :

(١) ذلك المريض الذى لا يستطيع أن يعمل ، ماذا يكون شأنه ؟. أيضيع حقه لأنه مريض ؟. أو بعبارة أصح ، أيموت من

الجوع لا لشيء إلا لمرض أقعده عن العمل ؟ .. إن أهل المائدة لا يبقون مما عليها شيئاً ، ولا يعبأون بحق غائب ولا مريض . . فكل عامل يجنى ثمر ما عمل ، دون التفات إلى غيره ، ولو كان لابن آدم واديان من ذهب ، لابتغى لهما ثالثا ، فخبرنا ماذا يكون شأن هذا الذى غيبه المرض عن حقه بين أولئك الذين أطلقت لهممهم العنان فى الفرص المتكافئة الحلال ؟

(ب) وذلك الشيخ الفانى ، الذى صيرته الشيخوخة إلى مثل حال المريض ، ماذا يكون أمره ، إنه غير قادر على العمل الذى هو قانون هذه المائدة ، وهو المسوغ الشرعى للأكل منها ، أيضيع حقه لأنه غير قادر على العمل ؟

(ح) وذلك اليتيم الضائع . وذلك الذى نزلت به الجوائح فجأة ، فذهبت الآفات بزرعه ، أو الأوبئة بماشيته ، أو الظروف بماله وتجارته ، فوجد نفسه على التراب ، ماذا يكون من شأنه ؟

إنها حالات تنزل صاحبها حتما فى منزلة المريض ، غير القادر على شيء ، فما حكم هؤلاء ؟

فقال صاحبه :

الأمر بسيط غاية البساطة ، إن هؤلاء شركاء أزليون فى هذه المائدة ، أو فى خيرات هذه الأرض ، فلهم فيها حقوق ثابتة ، ولقد ذكرت سابقاً أن لكل إنسان حقه الذى لا ينازعه فيه منازع : حقه فى أن يأكل ويشرب ، حتى لا يهلك من الجوع

وذكرت أن هذا كلام سهل واضح تقبله الفطر جميعاً حين تنظر إليه على نور الأزل وضوء الطبيعة . . . وهذه الحقوق الأزلية الثابتة لابد أن تؤدى إلى أربابها ، وإلا فسيف الله كفيل أن ينزل الجميع على حكمه .

وقد يكون هذا الكلام عاطفياً أو نظرياً فى رأى من لا يفهمون ، وقد يطلب إليك هؤلاء أن تقنعهم بالأسلوب الواقعى والمنطق العملى ، أن ثروة الأغنياء ليست ملكا خالصاً لهم ، بل فيها حقوق أزلية لغيرهم . ومن حقهم أن يطلبوا هذا ، أو من واجبنا أن نقنعهم بالمنطق الذى يريدون .

ومما نتفق فيه مع هؤلاء أن الثروة بنت العمل ، وأن الإنسان إنما يستحق كسبه بعمله . أى أن العمل قانون من قوانين استحلال الثروة ؟ وسبب من أسباب امتلاكها .

ولا سبيل إلى المماراة فى ذلك

ومما نتفق فيه مع هؤلاء أيضاً ، أنه إذا اشترك عاملان فى عمل ما ، فلكل منهما حصة تكافىء ما بذل من جهد ، فإذا تساوى الجهد فالكسب بينهما مناصفة ، وإذا اختلف الجهد اختلت الأنصبة تبعا لذلك .

ولا مراء فى هذا أيضاً

ونحب أن نسأل بعد هذا ، ما نسبة عمل الإنسان فى هذه الثروة إلى عمل الله سبحانه وتعالى ؟ لا تظن أننا نستغل الوجدان الدينى فى هذه المسألة الاقتصادية .. لا .. إننا نتكلم عن واقع الحياة الاقتصادية وتقرير حقائقها .

فالاقتصاديون يقررون أن الناس لا يخلقون الثروات وإنما يخلقها الله سبحانه وتعالى ، وما عمل الإنسان فيها إلا عمل ظاهرى وشكلى فقط ، يتناول معالجة الأشياء وتكييفها ، حتى تصير صالحة لنفع الناس ... فأين عمل الإنسان بها ، من عمل الله سبحانه وتعالى ؟

إن عمل الإنسان إذا قورن بعمل الله من حيث الانتاج الحقيقى ، لكانت النسبة : لا شىء إلى كل شىء .. إذ تكشف لك المقارنة ، أن الله تعالى هو الذى يعمل وينتج ... ونحن مستهلكون فقط ، نستهلك ما ينتجه لنا كما نريد .

فمثلا النجار الذى صنع الكرسى ، ليس هو الذى خلق الخشب ، ولن يستطيع أن يخلقه ، وإنما كل شأنه أنه جمع قطعا من الخشب ، وأخذ يدخل عليها تعديلات ، وتحويرات ويضم بعضها إلى بعض ، حتى صارت ملائمة للغرض الذى يريده ... فأين هذا من خلق الخشب نفسه ، وإيجاده من العدم !؟

أن القصة تتلخص فى أنه سبحانه يخلق .. ونحن ننتفع ..

وهذا هو معنى الإنتاج والاستهلاك الذى يدور عليه علم الاقتصاد كله . . . وكل ما هنالك أن الإنسان أدخل على حياته شيئا من التعقيد ، فجعلها كثيرة المطالب ، وصار لا يرضى أن يستهلك الأشياء كما خلقها الله ، فغير فيها وبدل ، على حسب ما يلائم ذوقه ورغبته .

لقد وجد الإنسان أن طعم البرتقالة المقشرة ألذ وأجود من طعمها وهى بقشرها الذى خلقه الله لها ، فهل يعد إزالة القشرة شيئا يذكر ، بجانب إنتاج البرتقالة نفسها ! ؟

وقد وجد نفسه يميل إلى تناول الأطعمة بعد علاجها ، بالتشقيق أو التقطيع ، أو التقشير ، أو نحوه ، فما قيمة هذه المعالجة فى عرف الإنتاج ! ؟

إن هذا كله ماهو فى الحقيقة إلا تهيئة للاستهلاك فقط ، وقد يقوم المرء بنفسه بهذه التهيئة ، وقد يكلف بها خادمه أو طباخه ؛ وعمل الطباخ أو الخادم حينئذ ، لا يخرج عن عمل النجار فى تهيئة الخشب للاستعمال . . . ولا فرق بين عمل الرجلين إلا فى الصورة والمجهود ونوع المادة أو « الخام » الذى يعد للاستهلاك . .

فنحن فى الحقيقة لا نعمل فى الانتاج شيئاً يذكر . . . وإنما نعمل فى الاستهلاك فقط ، فهو سبحانه يخلق ، ونحن ننتفع . . . ويعمل ، ونحن نأكل ونستهلك .

وما نظن عاقلا يحار فى فهم هـذا الوضع ، أو يجادل فيه . فهو الحقيقة الظاهرة ، التى لا يستطيع العقل أن يتهرب منها ويتمرد عليهـا ؛ وهو الأمر الواقع الذى لا مفر من الاعتراف به ، وإلا فبأى شىء نعترف ، إن كنا لانعترف بهذه البدهية الفطرية ، التى تشهد بهـا الحواس ، وتقر بها البصائر والأبصار ؟ .

ولعل مما تطيب له نفسك ، أن تقرأ هذه الحقائق فى القرآن الكريم سافرة ناصعة مشرقة فى مثل قوله تعالى « وآية لهم الأرض الميتة : أحييناها،وأخرجنا منها حباً . فمنه « يأكلون » ... وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون « ليأكلوا من ثمره ؛ وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ! ؟ » .

فأنت ترى فى الآية الكريمة ، أن الخلق والإيجاد ، أو العمل والانتاج فى جانب . . والأكل والاستهلاك فى جانب آخر . فالله سبحانه وتعالى ينسب لنفسه ـ صادقا ـ أنه هو الذى أحيا الأرض . وينسب لنفسه ـ صادقا ـ أنه هو الذى أخرج منهـا الحب . أما نحن فمهمتنا أن نأكل ونستهلك « فمنه يأكلون » .

ثم ينسب لنفسه ـ صادقا ـ أنه هو الذى جعل فى الأرض جنات من نخيل وأعناب ، وأنه هو الذى فجر فيها من العيون . . لماذا صنع كل هذا ! « ليأكلوا من ثمره » .. وبعد أن أسند

العمل كله لنفسه ، نفى أن يكون هناك عمل لغيره ، فقال بصريح العبارة « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » وإنما عملته يد الله سبحانه . . . ولهذا ختم الآية بهذا الختام الذى ما كان يصح لها غيره فقال : « أفلا يشكرون » ؟

ولعل ما يذهب عنك كل حرج ، أو كل قلق ، أن تعلم أن الله سبحانه قد تحدث عن عمل يده فى هذه السورة نفسها بعد هذه الآية بقليل فقال « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون » ؟

ولعلك تسأل بعد هذا : أما عمل الإنسان شيئاً فى حقول الحبوب وحدائق النخيل والأعناب ؟

نعم عمل ولكن ماذا عسى أن يكون هذا العمل ؟

إنه اجتهد فى سقى الزرع ، أى فى تحويل الماء من مجراه إلى الحقول والحدائق .. تحويل الماء الذى خلقه الله ، وأنزله من السماء ، وأجراه قبل ذلك سحاباً تحمله الريح ، وقبل أن تحمله الريح استنقذه بخاراً من العذب الفرات أو الملح الأجاج . . . . فأين تحويل الماء من مكان إلى مكان بجانب هذه الآيات المعجزة ؟

فإذا كان هناك من عمل للإنسان غير هذا ، فهو العزق الذى يستأصل النبات الطفيلى ، حتى لا يشارك الزرع فى طعامه . . . أو يشذب الأشجار ، حتى تعلو وتصح ، وتكون أطيب ثمرا وأكثر غفلة . . . فأين هذا من السهر على البذور فى جوف

الأرض والناس نيام ، والقيام عليها فى وضح النهار ، يصرف لها سبحانه غذاءها ، ورحيق حياتها ، من كيمياء الأرض . وعناصر الماء والهواء والضوء ، ما تنهر العقول لحكمته ودقته وعظمته ... ولا يشعر أحد بهذا ، ولا يدله فى شىء منه ، فسبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وفى المجال ما يغرى بالاستطراد إلى حقائق نفسية تتصل بهذا الموضوع ، ولكننا نكتفى بما يمس غرضنا الذى نحن بإزائه ، فليس لأحد مهما كان نشاطه أو كفاءته أو مقدرته ، أن يدعى أنه منتج ، فقد تبين أن أعمالنا كلها تدور حول الاستهلاك ، أو تهيئة الأشياء للاستهلاك والاستعمال ، وهى جهود لا يمكن أن تخرج الأشياء من ملكية منتجها أو خالقها سبحانه .

فإذا جاء الشرع يقرر : أن المال مال الله ، فهى قضية قائمة على أسس اقتصادية واقعية سليمة . . وإذا جاء المستهلكون يضعون أيديهم باسم العمل على هذه الثروات ، فإنهم يضعون أيديهم على مال الله . . وإذا كان حق العمل يمنحهم هذه الملكية فهى ملكية عارضة طارئة ، لا تنسخ أبداً ملكية الله .. وهى ملكية أشبه ماتكون بملكية الرجل المنتفع بأرض الحكر ، يضع يده عليها ، أو يبنى فوقها مايشاء من مسكن ، أو مصنع ، أو متجر أو ينتفع بها على أى وجه يريد ، دون أن ينسخ ذلك ملكية المالك الأصلى أو ينقص من حقوقه .

والله حين خلق ما خلق ، وعمل ما عمل ، وأنتج ما أنتج ، إنما أخرجه لعباده كافة ، ولم يخرجه لفريق دون فريق ، فهم فيه سواء كل على حسب جهده . . فإذا استولى الصحيح القوى على نصيب ما فى غيبة المريض أو الضعيف ، فإنما قد استولى على مال الله ، واستولى على أرض من الحكر ، ينتفع بها ولا يجحد حق الله فيها ، فيؤدى عنها . مايؤديه المحتكر لمالك الأرض الأصلى ، ولله ولرسوله المثل الأعلى .

هذه هى القضية ، وهذا هو الوضع السليم .

وبدهى أن حقوق الله لن ينال منها شيئاً ، وأن أصحابها وأولى الناس بها ، هم أولئك الذين حبسهم العذر عن السعى إليها والجد فى تحصيلها .

وعلى السلطان — وهو ظل الله فى الأرض — أن يتولى هو تنظيم هذه الكفالة ، وتحصيل تلك الحقوق ، على مايفى بحاجة المجتمع ، فلا يضيع يتيم ليتمه ، ولا شيخ لضعفه ، ولا عاطل لاستغلاق أبواب العمل فى وجهه ، ولا من فى حكم هؤلاء ممن تتركهم الحاجة نهباً للهموم والحرمان ، والذلة والهوان .

وسيأتى تفصيل ذلك فى فصول قادمة إن شاء الله فى رسالات أخرى . فنسأله العون والتوفيق .

الباب الأول

مع الأزل

« يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً »
« قرآن كريم »

هذه الأرض :

هذه الأرض التى نسكنها :
من مالكها وصاحبها ؟
من مصرف أمرها وقائم على أقدارها ؟
من الذى أبدعها وأنشأها وخلقها من العدم ؟
لا شك أن أحداً منا لا يستطيع أن يدعى أنه هو الذى فعل ذلك .

ولا شك أن كلامنا يجد فى فطرته الجواب حاضراً فيقول فى غير تردد « إنه هو الله رب العالمين » .

ولا يمكن أن يكون هناك جواب تطمئن إليه النفس غير هذا » .

هذه حقيقة من حقائق الأزل لا سبيل إلى إنكارها .

كأشجار الجنة ، تتدلى بثمارها إلى أفواه الآكلين ، كلما لقموا منها ثمراً ظهر غيره فى الحال مكانه ؛ لم يجعل أشجار الأرض كذلك ، ولم يجعل أنهارها مطاوعة لرغبات الظامئين ، كلما ظمئ ظامئ امتد إليه خليج من الماء ، وارتفع نحوه عموده الفضى ليبلغ فاه بدون عناء . لم يجعل الله مائدته الأرضية على هذا المثال ، ولو أن ظامئاً جلس إلى شاطىء نهر ، وبسط كفيه إلى الماء يدعوه أو يرجوه أن يبلغ فاه بدون رافعة ؛ لما أجيب بغير السخرية الصامتة من كل شىء حوله ، ولما كان له مصير إلا الموت ، إلا أن يعمل عملا يرفع به الماء إلى فمه . وتلك سنة الله فى هذه الأرض .

لابد من سير إلى النهر ؛ ولابد من عمل إذا أراد أن يشرب ، ولابد من سعى إلى الشجر ولابد من عمل إذا أراد أن يأكل . هذا هو المشاهد المحسوس من شأن هذه المائدة ؛ لاسبيل إلى تجاهله أو المكابرة فيه ، ولهذا سجله الله فى كتابه الخالد الكريم تقريراً للواقع ، وحثاً لعباده أن يجاروا سنن الوجود ، فقال عز شأنه : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

وقد قرأنا فى القديم والحديث نصوصا قوية ، تحث الناس على السعى والعمل . ولكنك لن تجد فى القديم ولا فى الحديث نصاً يقارب نص الله سبحانه :

١ — فهو يحث على العمل والسعى والنشاط والحركة

٢ — وهو يلم فى الوقت نفسه بسنن الحياة وقوانين الوجود : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » امشوا وكلوا ؛ فالمشى مقدمة الأكل ، والعمل سبيل الفائدة . . من مشى وسعى أكل . . ومن قعد وأهمل فكيف يأكل ؟ ومن أين يأكل ؟

وأنت ترى القرآن فى إلمامه بهذه السنن ، سهلا غاية السهولة ، واضحاً غاية الوضوح ، يعرض عليك الفلسفة ، ولا تشعر إلا بأنك حيال بديهية لا تحتاج إلى حديث ؛ وهذا من إعجاز الله فى كتابه سبحانه .

٣ — وهو فى النص على وجوب العمل ، أمر ببذل أقصى ما فى الطاقة ، ولم يرض لعباده المؤمنين ؛ أن يبذلوا اليسير من الجهد ، أو يقنعوا بالقليل من الرزق . ولعلك تعجب : أين مكان هذه المعانى من الآية الكريمة ؟ . فاقرأ يا أخى إن شئت وأعد قراءتها : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . لم يقل الله سبحانه : « فامشوا وكلوا من رزقه » ؛ لأن المشى هنا يشمل القليل والكثير ؛ ولكنه سبحانه قال : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ومناكب الأرض هى آفاقها الواسعة ، وفجاجها البعيدة وأقطارها المترامية الأطراف ، والمشى فى هذه المناكب الشاسعة

العريضة لايمكن أن يتم ببذل اليسير من الجهد ، ولا يمكن أن تكون نتيجته خمول الشأن بين الناس والحرمان من أرزاق الله ! . . لقد فتحت الآية الكريمة أبواب العمل على مصاريعها كلها وأطلقت همم العاملين إلى أبعد الآماد ، بألفاظها الهينة اليسيرة مما لاتجد له مثيلا فى سابق أو لاحق .

٤ — وفى الآية حث على الأسفار والاستكثار من الرحلات لا بقصد النزهة والترويح ، فإن ذلك يأتى بدون قصد ، ولكن للاستفادة من كل ما خلق الله من رزق : « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » ونحن فى عصر الرحلات والاستكشاف والتنقيب عما خلق الله من أرزاق فى بطون الأرض وصخور الجبال ، ولم تنقطع عنا أنباء هذه الرحلات وتسابقها العجيب فى اكتشاف معدن (الأورانيوم) أو غير (الأورانيوم) مما له أثر فى حضارة الإنسان ، فهل ترى الآية الكريمة تقصر مثقال ذرة فى إمداد أبنائها بكل ما يواجهون به مستلزمات هذا العصر من نشاط وحيوية وقوة ؟

٥ — ومما يجب الالتفات إليه فى الآية الكريمة أنها فى معرض الحث على طلب الرزق تنص على تمهيد الأرض وخلوها من كل عقبة يتعلل بها الكسالى ، فهى مذللة الصعاب ، موطأة الأكناف لمن يريد : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها » — ذلولا فامشوا . . . فكأنها تقول : لاعذر للقاعد بعد أن ذللنا

له السبل، ومهدنا له الأكناف ؛ ووطأنا له فجاج الدنيا وأطرافها ! فحسبنا يا أخى هذه الآية الكريمة من كتاب الله نرد بها على قطيع الممسوخين الذين هبطوا بلادنا كالوباء ، يشتمون نبينا ؛ ويسبون ديننا ؛ ويشيعون جرائم الفوضى والإباحية والإلحاد فى أوساطنا ، ويذيعون فى شبابنا البرىء الطاهر أن الإسلام دين كسل وخمول ورهبة واعتزال لمعترك الحياة .

* * *

ولكن للعمل - فى الإسلام - وجه آخر إلى جانب العمل الذى لم يفهم الناس سواه ؟ . فآفاق العمل أوسع مما يتصوره الكثيرون وأهدافه وغاياته أشرف وأعلى من التى يهدف إليها عباد اللقمة والقميص . وذلك يبدو لك واضحاً ؛ حين تنظر إلى الأمور ببصيرتك ، وتسائل نفسك فى عمق : ترى لأى شىء خلقنا ؟ .

جعل لكم الأرض :

نعم ترى لأى شىء نحن مخلوقون ؟

هل خلقنا لكى نأكل من هذه الأرض ؟

وبعبارة أخرى : هل خلقنا لهذه الأرض ، أو أن الأرض خلقت لنا ؟

والفرق بعيد جداً بين المعنيين :

فالذى خلق للأرض ليس له رسالة إلا أن يخدمها ، ويأكل منها ، ثم يموت .

أما الذى خلقت له الأرض ، فله رسالة أخرى ، وهى بلا شك أعلى من رسالة الأول . . وما الأرض فى هذه الحالة إلا شىء مسخر للخدمة ، يسخره الإنسان على حسب ما يراه صالحاً للرسالة .

وليس من كرامة أحد أن يزعم أنه خلق للأرض ، وأن لا رسالة له إلا خدمتها ، والأكل منها ، وما نحسب إنساناً ، يزعم لنفسه هذا الهوان ، أو يقبل أن يوصم به .

على أن الأمر فى ذلك ليس راجعاً إلى الكرامة الظاهرية أو العزة الجوفاء . . إنما هو راجع إلى الحق نفسه ، إلى فطرة الأشياء . . فالإنسان أعز من الأرض وأكرم ، بما فيه من الأحاسيس ، والمواهب ، والملكات العالية ، وهو مخلوق ترابى وعلوى معاً ، وليست هى من ذلك فى شىء .

وهذا السر العلوى ، هو الذى يثور حين يرمى الإنسان بأن همه الطعام والشراب والاستغراق فى أنواع الشهوات البدنية فيقال إنه ثار لكرامته . . فهى — إذاً — ليست ثورة ظاهرية ، بل هى احتجاج عميق ينبعث من فطرة الإنسان وأسرار تكوينه .

وأخيراً ، فإن المنطق الذى فطرنا الله عليه ، يأبى أن يصدق أن الإنسان خلق للأرض ، لأنه يأبى أن يصدق أن النقص

خير من الكمال ، وأن العلوى يجب أن يخدم السفلى ، وأن المخلوق الشاعر المفكر الملهم ، إنما خلق ليخدم هذا الوثن الأرضى الأصم .

فنحن لم نخلق للأرض ، إنما خلقنا لغاية أخرى ، ورسالة أعلى .. أما الأرض فقد خلقت لنا ، وسخرت لخدمتنا ولذا قال تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا » .

الإنسان بين العمل والرسالة :

العمل هو قانون الله لعمارة هذه الأرض مادياً وروحياً .

فعلى سطحها خيرات معروفة ، وفى جوفها خيرات كذلك غير مجهولة ، وفى صخور الجبال ، وأعماق البحار ، وفى الهواء وجو السماء فى هذا وغيره أرزاق مذخورة للإنسان ، ولكن لا يفض ختامها إلا لأهل العمل .

وأنت ترى أن من هذه الخيرات ، ما يمكن السعى إليه ، والحصول عليه ، بأيسر جهد عقلى ، وبوسائل آلية محض ، أى بحواس الإنسان وجوارحه الظاهرة ، كالعين والأذن واليد والرجل ونحوها ، وهذا ما يقع فى مقدور عامة الناس وخاصتهم ، ... وهذا أدنى مراتب العمل . وأصحابه هم العمال .

وترى كذلك أن من خيرات هذا العالم الأرضى ، ما خبأه الله سراً فى هوائها ، ومائها ، وضوئها ، وذراتها ، ونحوها ، وهذه

لا ينالها عامة الناس ، ولا يتوصل إليها إلا بجهد الخواص .

وكما خبأ الله هذه الأسرار ، فى هذه اللطائف الكونية ، خبأ مفاتيحها ، وجعلها سراً مضمراً فى مواهب الإنسان العقلية .

فإذا اتصل ظاهر الإنسان ، بظاهر الوجود ، واتصل سر مواهبه المضمرة ، بسر كنوزه الباطنة .. استثيرت الخيرات وتضاعفت الغلات والثروات .

وهذه مرتبة من العمل والجد ، أعقد من سابقتها ، وأجدى على عمران الأرض فى كثير من نواحيها .. وأصحابها كذلك هم العمال .

ولكن ، ماذا وراء ذلك ؟

ماذا وراء العمل والسعى لإحراز الخيرات الباطنة والظاهرة ، والقبض على زمام القوى الخافية والسافرة ؟

أتلك غاية تقف عندها الجهود ، وتدور حولها قوافل الأجيال؟ هل رسالتنا فى الحياة أن نعمل لنأكل ، وأن نعيش لنأكل ، أو أن علينا أن نعمل لما هو أعز من هذا منزلة ، وأوسع أفقاً وأبعد غاية ؟

بين العمران المادى والروحى :

لن يغنى الإنسانية ، أنها استخرجت كل ما فى الأرض من ثروة نباتية أو معدنية أو غيرها .

ولن يغنيها أنها كشفت عما لا يحلم به الإنسان من قوانين الطبيعة

وأسرارها وقواها ، وسخرته فى منافعها .

ولن يغنيها أنها عمرت الأرض بالمدن العامرة ، والقصور الزاهرة ، والبساتين الناضرة ، ودور الصناعات الضخمة ، والجامعات ، والمدارس والمتاحف ، والمسارح ، ودور السينما وأماكن اللهو ، ووسائل الترفيه ، واللذة والمتعة .

لن يغنيها شيء من هذا أو ما يشبهه ، مالم يقترن العمران الحسى ، بالعمران المعنوى .

وهاأنت ذا ترى الإنسانية ، قد جمعت من الثروات ما جمعت وبلغت من معرفة أسرار الطبيعة ما بلغت ، فهل أغناها ذلك من شيء ؟ وهل سعدت به يوماً من الأيام ؟

إن الإنسانية قد خرجت بالأمس من حرب طاحنة ضروس سربلت أهلها بالحزن ، وجللتهم بالسواد ، وأورثتهم من الرعب والهلع والحرمان والجوع ما لا عهد لهم به ، وها أنت ذا تراهم ولم تجف دماء قتلاهم ، يجمعون الحطب ليشبوا ناراً جديدة ، لن تكون أقل هولا أو أخف مصيبة من سابقتها .

ذلك أن العبرة ليست بما يتحلى به ظاهر الحياة ، ولا بما تتخذ الأرض من زخرف وزينة ، ولكن العبرة بالعمران الروحى ، والتهذيب العاطفى قبل أى شى آخر .

نحو العمران الروحى :

لقد عملت الإنسانية بما عملت من قواعد العلم المادى ، وطبقت أحكامه ، وجنت ثماره ، ولكن هناك علم آخر ، تعرفه ولا تطبقه ، وتراه وتتجاهله ، وإنه لجحود يزرى بكرامتها ، ويهبط بشأنها إلى الدرك الأسفل ، ولن يرفع من قدرها مثقال ذرة ، أنها عرفت كل مافى الطبيعة المحسة من قوانين ، واخترعت للمصالح المادية فوق ما يحلم به الحالمون ، ما دامت تتنكر لأحكام هذا العلم .

تكلم علماء الأخلاق ، والفلاسفة ، ومن قبلهم تكلم الأنبياء ونزل الوحى ، بعلم هو أشرف بدون شك من كل ما عرفت البشرية للآن من علوم الطبيعة وأشيائها الظاهرة .

جاءوا بأحكام فى الخير . . والشر .
والفضيلة . . والرذيلة .
والصدق . . والكذب .
والحلال . . والحرام .
والحق . . والباطل .
والوفاء . . والغدر .
والأمانة . . والخيانة .
والعدل . . والظلم .

ومنطقوا ذلك ، وقرروا قضاياه ، ومبادئه ، وتحدثوا عن قوة

آثاره فى المجتمع سلبا وإيجابا ، وبرهنوا وبرهن الواقع معهم على حسن عاقبة المجتمع حين تسوده أحكام الفضيلة ، وقوانين الخير ، ومنطق الحق . . وبرهنوا وبرهن الواقع معهم على سوء عاقبة المجتمع حين تسوده أحكام الفساد ، وتفشو فيه الرشوة ، وأساليب التلصص ، وقوانين الكذب والغدر .. ولا يستطيع العقل أن يرد قضية من هذه القضايا ، أو يتشكك فى صدق حكم من أحكامها ، بل يصدقها كما يصدق أن الواحد نصف الإثنين ، ومع ذلك نراهم يجاوزون أحكام هذه المبادىء ، ويسيرون على غير هداها .

أترى هناك فرقا بين ذلك المعتوه الذى خالف حكم العقل فى أن الواحد نصف الإثنين ، وراح ينصرف فى شئونه على خلاف هذا ، وبين ذلك الذى جاوز منطق العقل فى أن الحلال يصلح المجتمع ، والحرام يفسده ؟ إن كليهما يتلف نفسه لا محاله ، ويفسد حياته ، ويعيش خارج أحكام العقل كما يعيش كل معتوه ومجنون .

فإذا ظلت البشرية على هجر تلك المبادىء الروحية السامية ، فأى جمال يكون لها ، وأى علم بعد ذلك يرفع قدرها ، وأى قداسة للعقل وأحكامه تستطيع أن تدعيها لنفسها ، ونحن نراها تتحدى العلم بالضلال ، والرشد بالفساد ، والمنطق بالهزء والسخرية وقلة الاكتراث ؟ .

أتستطيع بربك أن تذكر لى على أى شىء تصلح هذه الأرض إذا لم يطبق فيها منطق العقل وأحكام قضاياه؟ لقد طبقت الإنسانية ما أدركته من قوانين الطبيعة فنجحت فيه ، ولكنها لم تطبق ما أدركته فى الجانب الآخر ، وهو أخطر الجانبين ، فأدركها من التعثر والفساد ، والاضطراب والخراب ، والشقاء والألم ، ما يعلمه الخاص والعام . . . وهل ينتظر من مجاوزة أحكام العقل إلا الاضطراب والفساد؟ وهل يستطيع الإنسان أن يقول إن هذه الحروب ، وهذه القلاقل التى تبلبل العالم وتحرقه من آن لآخر فى السعير ، سببها قلة ما حصل الناس من العلم الطبيعى؟ أم أن الكذب والغدر ، والخيانة ، وظلم الشعوب ، واستعباد الضعفاء ، وانسلاخ كبار السياسة عن كل مبادىء الفضيلة هو الذى جرنا إلى هذا المصير ؟؟ .

أين الرحمة ، وأين مظاهرها السمحة النبيلة ؟ . . . أنها إحدى غرائز الإنسان ، أى إحدى قواه الفطرية الأزلية . . لقد غاض هذا المعين العذب فى زحمة السعار المادى المنهوم ، وأوشك الإنسان أن يتحول به — أو قد تحول — آلة يابسة صماء ، لا تعرف سماحة ، ولا مواساة صادقة ، ولا نهضة إلى إغاثة ملهوف . . . ولا أذكر الإيثار فهو خرافة فى حضارة تتجر بلحوم البشر ، وما هكذا يجوز أن يمسخ الإنسان !

لقد عمرنا جوانب الأرض بمختلف ألوان العمارة المادية ،

فعلينا أن نعمل فى جوانب العمارة الأخرى . . أنه ميدان فسيح خطير ، معينه المعنويات لا المحسوسات ، ودستوره الاستقامة على الفضيلة ، ورعاية أحكام الحق ، ومظهره العمل للخير العام ، أو العمل لصالح الناس ، دون الاكتفاء بالصالح الخاص .

علينا أن نعمل ، لنرى فضائل البذل ، والصدق والوفاء ، لا البخل ، والكذب ، والغدر قائمة سائدة .

علينا أن نعمل لتكون عواطف الحب والرحمة ، والمواساة لا البغض ، والقسوة ، والشماتة ، آخذة سبيلها فى حياة الناس .

علينا أن نعمل ، لنرى العمل للغـــير ، وصالح الجماعة هو الدستور المقرر ، الذى يعيش فى نطاقه جميع الأفراد ..

والعمل للغير أن أعطى مما أكسب ، وتلك ناحية نظمها الإسلام على نمط مثالى فذ ، سنعرض لبيانه فيما يلى إن شاء الله

والعمل للغير ، إغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف ، وتنفيس أزمة المكروب . . والعمل للغير ، أن تدفع عنهم مايؤذيهم .

. . . تدفع عنهم الظلم ، وأسباب الخوف .. وتعمل أن لا يعود إليهم الظلم وأسباب الخوف .. وتسعى فى إقامة صرح العدالة والنصفة ، الذى تتوزع به الحقوق والواجبات على أعدل سنن المساواة .

فإذا كنت وحدك ولا طاقة لك بهذا كله أو بعضه ، فاعلم أن الجماعة هى نظام الإنسانية ، وهى وسيلتك إلى كل ماتريد من خير

فاعمل أن تكون فى جماعة ، وأن تكون لك هذه الجماعة ، فالجماعة الفاضلة مابرحت مناط الرجاء فى التعاون على البر والتقوى ، لدى كل من ينشد الخير لهذه الإنسانية .

هذه كلها أعمال يجمعها محيط العمران الروحى ، وهى كما ترى لازمة لسعادة الناس ، واستقرار حياتهم المادية .. وأصحابها لاشك من العمال .

نحو القلوب .

ولكن من لنا بهذا كله ؟ وما عدتنا إليه ؟

لم يخلقنا الله معطلين من مواهب العمران الروحى ، كما أنه لم يخلقنا معطلين من مواهب العمران المادى . . .

فللإنسان قلبه الذى يدفع إلى الخير أو الشر .

وله قلبه الذى إذا صلحت نياته صلحت الدنيا كلها ، وإذا فسدت ، كان الخراب والدمار والشقاء .

فإلى القلب إذا . . فهو وسيلتك العتيدة .

علينا أن نسعى فى عمارته بأنواع الفضائل ، وأشرف العواطف ، والكشف عما فيه من ينابيع الحكمة ، والرحمة ، والمواساة ، والإيثار ، ونحو ذلك مما تصلح به الحياة النفسية والاجتماعية .

أما إذا سكنته أبالسة الشر ، وشياطين الأنانية والشهوة فلن ترى إلا الرجل الذى يعيش لنفسه ، ويبغى لها كل شىء من دون الناس . . ولن تجد إلا الأمة التى لا ترى أحداً أحق منها بخيرات الأرض .. ولن يكون خلال ذلك إلا الكذب ، والغش ، والنفاق ، والرياء ، والزور ، والغدر ، والتنافس البغيض ، والحقد المتزايد ، والحروب التى لاتنقطع . . ولن يستقيم مع هذا عمران أبداً ، ولن يكون فى شىء منه تقدم للانسانية ، ومن ظن غير هذا ، فقد دل من نفسه على غفلة كثيفة .

ويجب أن يتقرر فى الأذهان ، أن الانسان لايصلح لأن يكون من عناصر سلم هذه الأرض ، إلا إذا كان له قلب يفيض من عالم الغيب برحيق هذا السلم ، وكل إغضاء عن هذه الحقيقة ، أو تهوين لقدرها ، إنما هو مشاركة فى جرائم المجرمين ؛ ومساهمة فيما ينصب على الإنسانية من ويلات نفسية وحسية .

فنحن إذا أمام ميدان خطير من ميادين العمل ، بل أمام لون حاسم من ألوان الجهاد ، يجب أن تنعقد الأواصر على تحقيقه ، وتتآزر الهمم على الوفاء بفروضه ، وتكاليفه ، إذا أردنا الخير لهذه الانسانية حقاً . . ولا شك أنك معى على أن هذه المجاهدة ، من أسمى أنواع العمل ، وأن أهلها من الخلاصات العاملة الكريمة .

هجرة إلى عالم المعنويات :

لقد قلنا منذ قليل ، إن الانسان لا يصلح أبداً أن يكون عنصراً من عناصر سلم هذه الأرض ، إلا إذا كان له قلب يفيض من عالم الغيب برحيق هذا السلم ، أى أنه فى حاجة إلى قوة إيجابية تملأ قلبه بدوافع الحق والخير . . وهذه القوة ، أو هذه الدوافع لا تلتمس فى عالم المادة ، بل لها عالم آخر ، هى روح من أرواحه ، وسر من أسراره . . فعلينا أن ننتقل ، أو نهاجر من آن لآخر ، إلى هذا العالم لنتزود منه بما نريد من حق ، وخير ، وأسرار .

على المرء أن يفرغ من هذه الدنيا لحظات يرتبها لنفسه كل يوم وليلة - يتجرد فيها تماماً من هموم معاشه ، ومشاغل وقته ، وخواطر نجاحه أو فشله ، وهواجس ربحه أو خسارته وما لقى من كيد الكائدين ، ودسائس المنافسين . . عليه أن يسحب نفسه من كل ذلك ، ويختلسها من هذا المحيط الصاخب الفاسد ، حتى يجد نفسه قد خرج من الدنيا وغاب عنها ، إلى عالم هادىء نقى سعيد .

ولا تظن أن هذا الحديث غريب عنك ، فلا بد أنك جربته ، ولا بد أنه طرأ عليك أكثر من مرة .

فإذا قلنا إن الانسان يغيب عن هذه الدنيا المادية ، فليس معناه أن السماء والأرض قد غابتا عنه ، وأنه صار لا يرى الناس والأشياء ؛ بل معناه أن القلب الذى كان يتأثر بالمادة ، ومشاكلها ، ويبنى علاقته بالناس على مقتضاها ، قد صار تحت جناح قوة غيبية كريمة ، يتأثر بدوافعها الروحية ، ويمتزج بتياراتها المباركة .

فهو تارة يتأمل ويتفكر فى خلق السموات والأرض ، وما أودعها الله من جمال ، وصفاء ، وحكمة ، واتقان صنع ، واحكام وضع . . وأنها لآيات تحدثك عن الله القيوم أحاديث يخشع لها القلب ، وتطهر النفس ، ويلين بها الطبع ، ويستسلم لعزة الله ورحمته « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ، فقنا عذاب النار »

وفى جلسة التأمل يمتلىء حكمة ، وهداية ، وإيماناً بالله ، وعلما بصفات قدرته ، وهيمنته ، وتدبيره ، ومعرفة بشأنه سبحانه ، وحسبك ذلك زاداً للقلب ، ونوراً للبصيرة . .

وتارة يتأمل فى نفسه : مم خلق ؟ . . ويرجع فى تأمله إلى الفطرة الأولى ، ليرى ما جبل عليه من ضعف ، وعجز . . وهوان الماء المهين . . ويرى ما تقلب فيه ، وصار إليه بعد أن أنعم الله عليه بما أنعم به . لقد أستوعه نعما خفية ، وأفاض عليه أخرى ظاهرة . . وما كان ليستطيع أن يهب لنفسه مثقال

ذرة منها ، ولو كان كل من فى الأرض ظهيراً له ، وأن نعمة واحدة منها — كالقوة مثلا أوالعقل وحسن التدبير ، والقدرة على التصرف فى الأشياء — لتثقل وجدانه بأنواع من التأثر ، وعرفان الجميل ، وشكر ذلك الذى أعطى دون أن يسأل ، وأقبل باللطف والهبة دون أن يدعى . . . أن التفكر فى نعمة واحدة ليذهب بالإنسان هذه المذاهب من التأثرات ، فكيف بسائر ما وهب من النعم .. بل كيف بسموه هو فى عطائه ، إذ لم يرض لفضله عليك أن يكون محدوداً ، فأفاض عليك ما تعرف ، ومالا تعرف ، وأعطاك ماتسأل ، ومالا تسأل ؛ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها .؟

. . وفى موقف هذا التأمل ، أو جلسته ، لايحس إلا وجدانا عاجزاً مفحماً عن أن يسدى للمنعم المتفضل مثقال ذرة من شىء ردا لجميله ، فلا يسعه إلا أن يخر شاكراً لاهجاً بثناء لايفصح عنه اللسان ؛ ويترجمه الحب العميق ، والأخلاص الغامر ، والعبودية الصادقة لهذا الذى لم يشأ أن يستعبد عبده إلا بقيود الإحسان إليه .

وثالثة يتأمل ويقارن بين أحكام العقل فى المادة ، وإحكامه فى غيرها ... ويوازن بين مايذهب منها بالإنسان إلى النبل ؛ والفضل ، والسمو ، والله . . وما يذهب به كالمسعور ؛ إلى المنافسة ، والبغض ، والحقد والشيطان ! !

يتأمل حرص الناس على استغلال العقل وقوانينه فى نصب الشباك ، والاحتيال لاقتناص المادة ، فلا يفرطون فى حكم عقلى واحد ، إلا سخروه فى الحلال أو الحرام إرضاء لأبدانهم . فإذا كانوا مع نفوسهم أغمضوا أن يسعدوها بفضيلة واحدة ، وعطلوا كل حكم من أحكام الخير ما دام يقف عقبة فى سبيل ما يشتهون !!

. . يتأمل أولئك الذين يرخصون الغالى ، ويغلون الرخيص ، ويلغون عقولهم ، ليشتروا الضلالة بالهدى ، ويستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير . . ويعود إلى نفسه ، فيحاسبها ، ماذا وقع هو فيه من ذلك ...

... هل عصف فى يومه بموازين العقل ، فاستعمل مافى إحدى الكفتين ، وأراق مافى الأخرى على الأرض ؟ وهل أفسد من نفسه شيئاً ، وأحدث بدينه ثلمة ، وهل عقد تحت عين الله صفقة خاسرة ، ونبذ تجارته التى لن تبور وعاد بالخيبة البائرة ؟ . . وهل رضى أن يعيش لحظة من يوم ، بغير خلق ، ولا عقل تحت ظل الشيطان زهدا فى الله . ؟

وفى فترة التأمل ، ولحظة المحاسبة يستدرج إلى جو جميل وشعور نبيل ، وإحساس صادق بقيم الحياة ، يرضيه ويسعده ، إذا كان أصاب وربح وأرضى الله .. وإلا تركه للأسف والحزن ،

والندم والألم ، وكل تلك مشاعر مطهرة ، يطل من خلالها وجه الله عليه بالتوبة والقبول ! !

يجب أن يكون له فى يومه وليلته أوراد راتبة من هذا القبيل يغادر بها دنيا الناس ، إلى عالم هذه الحقائق والمشاعر ، فهى زاد للنفس ، ونور للعقل ، وهداية للضمير ، وعزيمة على الرشد ، وعصمة للقلب أن تلعب به الأهواء .. وكلنا يعرف أن من مقاصد الإسلام حين فرض الصلوات الخمس على المسلمين فى اليوم والليلة ، أن تكون لهم رحلات منظمة ، إلى عالمهم العلوى ، يتزودون فيها بما يلهم الخير والصلاح ، ويكف عما عدا ذلك .. وإليه الإشارة بقوله تعالى : « اتل ما اوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر » .. وإنها لرحلة تنادى صاحبها إلى التشمير ، وتقتضيه الجا وصدق العزيمة ، حتى يستطيع القلب أن ينفض عن جناحيه وضر المادة ، ويحلق بهما فى ملكوت الحقائق النائى .. فمن أحس فى رحلته أن نفسه تفيض من الفرح ، وذوقه يغرد بجمال الحق ، وبصيرته تصغر كل ما حوله من قيم المادة ، وقلبه من وراء ذلك يرمى بالشهب غيرة على حماه ، فليعلم أن رحلته مبرورة ، وأنه أشرف منها على العالم المرموق . . . وإلا فليعلم أن صاحبه كان يلهو بالأوهام ، أو كانت تلهو به وتعبث ، ولا أرب لنا فى ذاك الطراز من التافهين .

فطام الرجال والأطفال :

إننا ندعو إلى الانتقال الجدى الواقعى . لا الخيالى الوهمى .

الانتقال الذى تصحبه مشقة المجاهدة . وشدة المراقبة والمحاسبة .

الانتقال الذى نخرج به من رخاوة الهوى وعمايته . . . إلى صلابة الحق وهدايته .

الانتقال الذى ترد به النفس من جموح التدلل فى المطالب . . إلى معاناة الجد والصبر على الكفاية .

الانتقال الذى تفطم به نفوس الرجال ، وتراض به على مثل فطام الأطفال .

إن الدنيا حلوة خضرة — كما يقول رسول الله صلوات الله عليه — وبين حلاوتها المادية ، وحلاوة النعيم الروحى ، مرحلة انتقال جافة . . فيها قسوة ومشقة وحرمان ، هى التى تصد الناس عن المهاجرة إلى ما وراءها ، وتردهم على أعقابهم إلى تمزز النعيم المادى . وذلك هو مرض الإرادة المنهارة ، أو الطفولة المتميعة فإذا حمل الطفل على الفطام ، وسامه أبواه مشقة الحرمان ، تماسكت إرادته ، واستحصدت مرته ، واجتاز فترة الانتقال ، واستقبل ما وراءها من عهود رشده وإدراكه ، وتفتحت أمامه صنوف من اللذات ما كان يحلم بها وهو يلقم ثدى أمه .

وإذا كنت تحس فرقاً هائلا بين عهد الرضاع ، وما بعده من عهود ! . فرقاً فى الإدراك والمعرفة . وفرقاً فى العزيمة والاحتمال ، وفرقاً فى تعدد صنوف اللذات . إذا كنت تحس هذا الفرق الهائل ، فاعلم أنه يتضاءل جداً حتى يكاد يتلاشى ، إذا قورن بالفرق بين الرجل يلقم ثدى هذه الدنيا وبين الآخر يطلب نعيمه فى المحيط الروحى . . كم بينهما من فروق فى الإدراك والمعرفة ، وفروق فى العزيمة والاحتمال ، وفروق فى صنوف المسرات كيفا وكما .

فإذا ذهبت تبشر بذلك بين الناس فلم يسمع لك أحد ، وظنك الرقعاء خيالياً غير واقعى ، فاعلم أن الطفل إذا أقسم له أبواه ، أن الفطام خير له من الرضاع ، لما استمع ، وإذا استمع ، لما فهم ، وإذا فهم ، لما رضى أن يترك ما هو فيه ؛ وأن إصراره على شأنه لا ينهض دليلا على خطأ أبويه ، ورشد ما هو عليه ، كما أن هذا الإصرار لا يصح أن يثنى الأبوين الراشدين ، عن قمع هوى طفلهما بكل وسيلة ، حتى ينقلاه إلى ما فيه صلاحه .

الحاجة إلى قائد :

نقول هذا حتى يعلم الجميع ، أن الإنسانية فى حاجة إلى قيادة حازمة ، رشيدة ، رحيمة ، تحدد لها مثلها الأعلى ، وهدفها العام ، فى جد وصراحة ، لا فى عبث ، وكذب ، ورياء . ثم تثير حماسة

الأفراد والجماعات لهذا الهدف ، وتشد فيهم قوى العصبية له . . وتتدرج بهم نحوه فى صدق ، وقوة وإصرار ، وتنقلهم خلال ذلك من رشد إلى أرشد ، ومن صلاح إلى أصلح ، حتى يصيب كل من الهدى ، والتقى ، وسعة المعرفة ، وهناءة الضمير ، ما قدر له أن يبلغه .

يومئذ ينظر الناس إلى ماضيهم ، كما ينظر الرجل إلى أيام طفولته . ويومئذ لا تثير فيهم زينة الحياة الدنيا ، إلا بقدر ما يثور فى قلب الرجل من الشوق إلى ثدى أمه ، فهل يزاحم عليه وينافس ؟ . .

لقد بلغوا الرشد ، وعرفوا الحقائق ، وزهدوا فى الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

ثمر العمران الروحى :

ويومئذ تكثر الخيرات ، وتضاعف الثمرات ، بما حل فى القلوب من أرواح السلام ، والطمأنينة ، والتقى .

يومئذ يكون ذلك حقاً ، لا تجوزاً ، ولا مبالغة ، فإن من الأرزاق ما يستثار بتقوى القلوب ، كما أن منها ما يدرك بغير ذلك من الوسائل المعهودة . والله سبحانه أخبر أنه استودع الأرض سراً من بركته ، قبل أن يقدر فيها أقواتها ، وجعل فيها رواسى

من فوقها ، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، فى أربعة أيام سواء للسائلين » .

ولا خير فى الكسب بدون بركة ، ولا سبيل إلى البركة بدون تقوى ، فهى وحدها مفتاح الخير لأرزاق السماء والأرض ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا ، واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، « ولو أنهم أقاموا التوراة ، والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » .

يومئذ تكون الأرض دار سلم وطمأنينة ، ومعبداً لله رب العالمين .

وإن وراء ذلك لأبواباً من المعانى وآفاقا من الحقائق ، تدور حول تجلية الرسالة العليا والغاية الأخيرة . ولكن حسبنا ما تقدم .

والآن يا أخى : لقد حدثناك عن أعمال كثيرة ، يعملها الإنسان فى عالم المادة ، وعالم الروح ، وأريناك على قدر ما سمح به المقام — بعض ما ينتظر الإنسان من واجبات كثيرة ، نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو الناس ، أو نحو رسالته فى هذا الوجود .

وليست الأعمال عند الله فوضى ، فلكل عمل نظام يجرى عليه

وأسباب يستعان بها عليه ، وسنة محكمة ، تفضى بسالكيها إلى العقبى لا محالة .

ولكل عمل كذلك ثواب ، يعجل منه فى الدنيا ما يعجل ، ويدخر منه للآخرة ما يدخر ، ولسنا بصدد الحديث عن كل عمل وسنة ، فليطلبه من شاء فى كتاب الله وسنة رسوله .

ولكن لما كان الناس ، لا يشغلون أنفسهم الآن إلا بنوع واحد من العمل ، ولا يكادون يعرفون غيره ، هو العمل لكسب القوت ، آثرنا أن نخص هذا النوع ، بكلمة فيها بعض التفصيل ، راجين أن يجد فيها الجميع إن شاء الله ، ما يقنعهم بشمول الإسلام ودقة إحاطته بالأمور .

الدين يحث على العمل :

وقد صدرنا هذا الفصل بآية كريمة من كتاب الله الكريم ، وهى صريحة فى الحث على طلب الرزق ، بل إنها تزيد فتأمر الإنسان أن يطلبه فى مناكب الأرض وأقطارها الواسعة متى كانت ظروفه تقتضى ذلك .

والدين بهذا عملى منطقى ، يساوق سنة الحياة وينهض أبناءه إلى مسايرتها ، ولا ينتظر من دين يأتى من عند الله سبحانه إلا هذا .

ولقد حث نبينا صـــلوات الله عليه على العمل ، فقال فى فضل الصناعة :

« ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » « وخير الكسب ، كسب الصانع إذا نصح » .

وقال فى فضل الزراعة « ما من مسلم يغرس غرسا ، أو يزرع زرعا ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، إلا كان له به صدقة » .

وروى الإمام أحمد أن صحابيا قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى هاتين يقول : « من نصب شجرة ، فصبر على حفظها ، والقيام عليها حتى تثمر ، كان له فى كل شىء يصاب من ثمرها صدقة عند الله عز وجل » .

أما فى التجارة فحسبك فعـــله فيها عليه السلام ، بعد قوله الشريف : « أحل ما أكل الرجل من كسبه ، وكل بيع مبرور » .

نعم حسبك بعد هذا فعله الذى نرى الكثيرين لا يلتفتون إليه ، فأنه بعد أن فرغ من بناء مسجده ، والمسجد هو بيت الله ورمز أعمال العبادة الروحية ، كان أول ما عنى به تنظيم الحياة التجارية ، ورسم سوقها للناس ، وتحريرها من كل دنىء مستغل ، أو طامع محتكر :

كان سوق المدينة فى بنى قينقاع ، حى من اليهود ، وكانوا فيها على سجيتهم الخبيثة من أكل السحت وعبادة المال ، فكانوا يضربون

على الناس فيها الخراج ، ويبيعون فيها الأماكن أو يؤجرونها ، أو يحتكرونها . . . ذلك إلى أن سيادة التقاليد اليهوديه فى هذا السوق كانت من مظاهر اخضاع الحياة الاقتصادية لغير سلطان الإسلام وتعاليمه ، فرأى الرسول إزاء ذلك كله أن ينشىء سوقا جديدا ، فضرب قبة ليقوم حولها الناس بالبيع والشراء .. ولكن ذلك غاظ الزعيم اليهودى المعروف كعب بين الأشرف ، ويظهر أن القبة كانت مضروبة فى منطقة قريبة منهم أو واقعة تحت نفوذهم ، فمضى إليها هذا الفاجر الحاقد ، وقوضها وقطع اطنابها .. ولم يشأ الرسول أن يجعل لهذا العمل الصغير قيمة ، فقال عليه السلام : « والله لأضربن له سوقا هو أغيظ له من هذا » وفى رواية : « لا جرم ، لانقلنها إلى موضع هو أغيظ له من هذا » ومضى إلى مكان فسيح صالح حر وضرب فيه برجله وقال : « هذا سوقكم ، فلا يضيق ، ولا يؤخذ فيه خراج » . . وفى رواية : « هذا سوقكم ، فلا ينتقص ، ولا يضرب عليه خراج » . . وفى ثالثة : « هذا سوقكم ، لا تتحجروا ولا يضرب عليه الخراج » .

وقامت السوق قوية منظمة ، فكان للخيل مكان ، وللابل غيره ، وللغنم سواهما ، ولكل عرض من العروض مكانه الخاص ، كالسمن ، والزبيب ، والتمر ، والقمح وهكذا .

وكان أهم ما عنى به عليه السلام ، هو حرية السوق ، وإتاحة

الفرص المتكافئة للجميع على السواء ، ومقاومة كل سلطان أو مظهر يراد به التأثير أو الاستئثار بأى امتياز . . . فمع أنه حرم ضرب الخراج ، حرم أن يحتكر أحد لنفسه مكانا فى السوق، أى يضرب حوله علامة تدل على حيازته والاستئثار به . . وذلك قوله عليه السلام « هذا سوقكم لاتتحجروا . . » ولقد حدث أن رأى عليه السلام خيمة مضروبة لمحمد بن مسلمه يباع فيها تمر فغضب وأمر بإحراقها لما فيها من شبهة احتكار الأماكن ، واحتمال ادعائها بوضع اليد ، أو الاستئثار بها بحكم العادة .

وكان عليه السلام يتعهد السوق ببره ونصحه وإشرافه من آن لآخر ، فمرة يضبط التاجر الغشاش الذى وضع الطعام الجيد أمام الأنظار ليستر به ماتحته من طعام مغشوش ، فيعلن فى الناس ثلاثا : « من غش فليس منا » . . ويأمر التجار أن يكون شأنهم التسهل والاسماح فليزن كل منهم وليرجح نائيا بنفسه عن موطن الكزازة والتطفيف . . . ورأى تاجرا يبيع صنفا جيدا بأرخص مما عليه السوق ، فلما علم منه أنه يحتسب ذلك ابتغاء مرضاة الله ، أعلن إلى أهل السوق كله : « أبشروا فأن الجالب إلى سوقنا ، كالمجاهد فى سبيل الله، وإن المحتكر فى سوقنا كالملحد فى كتاب الله » .

ويستطيع من شاء أن يتخذ من هديه عليه السلام فى التجارة وأسواقها قواعد قيمة سامية ، لدستور اقتصادى قائم على العدالة

والحرية ، وتكافؤ الفرص ، خال من عوامل الطمع والغش والاستغلال الدنيء . . أما فى موضوعنا الذى نحن بصدده ، فنحسب أن ما سقناه من النصوص والآيات كاف للتدليل على أن الدين يأمر بالعمل صناعة ، وزراعة ، وتجارة وغيرها .

ولقد مصت سنة القرآن على ذلك بعد رسول الله ، فهذا عمر رضى الله عنه يقول كلمته الذائعة المأثورة « لا يقعدن أحدكم عن عن طلب الرزق ويقول ، اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » فالدين على هذا يجعل العمل من سنة الحياة ولا يرضى لأبنائه القعود والتخلف ، ولو كان خلوة فى زوايا المساجد أو انقطاعا فى منعزل الصوامع ، ولقد رووا أن المسيح عليه السلام رأى شابا منقطعا للعبادة لا يفتر ، حتى أعجب الناس به ، فقال ، ومن يعمل ليقوتك ؟ فقال الشاب : أخى ! !

فقال المسيح عليه السلام : أخوك أعبد منك .

هذا نظر أرباب البصائر من المرسلين وأئمة الأديان ، لا يخطئون سنة الله فى قول أو عمل ، لأنهم ينظرون إلى الحقائق بالنور الذى يكشف لهم كل شيء ، ومثل ذلك ما جاء عن أبى سليمان الدارانى « ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك ، وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فاحرزهما ثم تعبد » وقال عمر رضى الله عنه « ما من موضع يأتينى فيه الموت — بعد الشهادة

فى سبيل الله — أحب إلى منَ موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى ؛ ولم يقل مسجد أتعبد فيه . أو خلوة أسمو فى مشاعرها إلى الملأ الأعلى .

الدين يقدس العمل :

والدين بعد هذا يقدس العمل ، ويجعله من الشعائر الواجبة .

أسمعت أيها الشاب مدلول هذه الجملة ؟

إن الدين لم يأمر بالعمل فحسب ، بل قدسه أيضاً ، وجعله من الشعائر الواجبة ، فأين نجد مثل هذا فى نظام أو قانون ؟

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ، ذات يوم ، فنظروا إلى شاب جلد قوى وقد بكر يسعى ... فقالوا : ويح هذا ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله ؟

فقال عليه السلام : لا تقولوا هذا . . فإنه إن كان يسعى على أبوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ليغنيهم ويكفيهم ، فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى تفاخراً و تكاثراً ، فهو فى سبيل الشيطان ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما ترى يخبر بأن عمل المرء لكسب قوته إنما هو عمل مقدس لأنه فى سبيل الله .

وتراه عليه السلام يبشر العامل المجتهد بمغفرة الله سبحانه ، فيقول « من أمسى كالا — أى متعباً — من عمل يده أمسى مغفوراً له » .

ويزيد فى البشارة فيقول « من طلب الدنيا حلالا ، وتعففاً عن المسألة وسعياً على عياله ، وتعطفاً على جاره ، لقى الله وجهه كالقمر ليلة البدر !! .

إذا سعيت لنفسك أو لذويك فهو فى سبيل الله .

وإذا تعبت فى عملك استوجبت مغفرة الله .

وإذا طلبت الرزق حلالا ، لقيته فى الآخرة على خير حال .

واعلم أن هناك شعائر دينية . تتفاوت فى لزومها وضرورتها ، بحسب مكانها من الدين . . . فبعضها واجب ، وبعضها مندوب ، وبعضها نفل ، وبعضها مباح ، وأقوى هذه كلها الواجب فإذا علمت هذا ، فاعلم إلى جانبه أن أئمة المسلمين حكموا بوجوب عمارة الأرض حتى تكون زاهرة صالحة .

قال الجصاص فى كتابه أحكام القرآن عند تفسير قوله تعالى فى سورة هود : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » . . « أى أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه . . وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية » . أى أن الدين لم يجعل عمارة الأرض من النوافل أو المندوبات ، بل جعلها من الشعائر الواجبة ، التى يثاب فاعلها ، ويعاقب تاركها ، ويحكم بالفسق على منكرها .

ومن الطريف أن الأئمة اختلفوا فيما بينهم : أى الأعمال

أفضل ، وأقرب إلى الله . . ؟ التجارة ، أو الزراعة ، أو الصنعة ؟ وافترقوا فى ذلك إلى مذاهب :

فقال جماعة منهم الشافعى : التجارة أفضل المكاسب . . وقال آخرون : بل الزراعة أطيبها ، لما فيها من معنى التوكل على الله ، ولما فيها من النفع العام للآدمى وللدواب ، والطير .

وقال النووى : والصواب أن اطيب المكاسب الصنعة ، ويستأنس لهذا الرأى بقوله عليه السلام : « ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »

فهذه المفاضلات الطريفة التى تقرؤها فى أول الجزء الثالث من كتاب سبل السلام للصنعانى تفيد أنه كان من المقرر عند الأئمة رضوان الله عليهم وجوب العمل ، وأنه شعيرة من شعائر الدين ، وأنهم على هذا الاعتبار كانوا يفاضلون بين أنواع العمل ، أيها أعظم قربة إلى الله سبحانه وتعالى .

العمل ... هو ثمن الحياة :

إقرأ معى الآية التى صدرنا بها هذا الفصل . إقرأها مرة أخرى « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »

فالمشى هنا يسبق الأكل ، وهو الوسيلة التى توصل إليه ، فمن مشى أكل ، ومن لم يمش فكيف يأكل ؟

هذا مفهوم الآية الواضح ، وهو منطق الفطرة : وقانون العمران ، فمن جد وجد ومن زرع حصد ، والثروة دائماً بنت العمل .

والذى نخرج به من هذا الكلام : أن على كل منا ضريبة يؤديها لقاء ما يأكل . . بل هو شيء أهم من الضريبة وأكبر ، فعلى كل منا أن يدفع للحياة ثمن ما يأكل ، والثمن هو السعى ، والعمل ، والجد ، فمن دفع الثمن فقد حل له الطعام ، ومن قعد راغباً مختاراً فليس له جزاء إلا الحرمان .

فإذا رأيت بعد ذلك إنساناً قاعدا لا عمل له ، أو هو يعمل ولكن فى اللهو ، واللعب ، والقمار ، والرقص ، والخمر ، وسهر الليل ونوم أكثر النهار ، إذا رأيت إنساناً هذا شأنه ، ومع هذا يأكل ، ويشرب ، ويحوز الثروات ، فاعلم أنه لص من لصوص الحياة ، وهو آفة اجتماعية ، يجب علاجها .

ليست هذه الأرض « تكية » ، ولم يخلق الله أهلها ليكونوا فيها « بلطجية » أو « تنابلة » ، لم نقرأ هذا فى كتاب ولا فى سنة ولا فى قانون . . نقول هذا لما نراه عندنا من أصناف لا عمل لها يعود على الحياة فى يومها وليلها بثمرة إيجابية ، ومع هذا ففى أيديهم المال ، والجاه ، والسلطان فمن أين جاءهم هذا ؟ من الميراث ؟

لا اعتراض لنا على الميراث ، ولكن كيف نمت فى أيديهم

هذه الأموال الموروثة ، بل كيفَ بقيت معهم على القعود والكسل واحتملت ما ينفقون على اللهو والترف . ؟

إن هذا شذوذ عن قانون الحياة ، وخروج عن الأوضاع الطبيعية للمجتمع السليم ، ولا بد لنا من النظر فيه ، فإنه لن يستقيم لنا حال أبداً ما دمنا بعيدين فى حياتنا العملية عن قوانين الطبيعة ، والسكوت على هذا إنما هو سكوت على العلة ترعى فى جسم المريض حتى تأتى عليه .

« (*) إن الحياة ضنينة أن تمنح خيرها إلا للعاملين ، ولكل واحد من أبناء الحياة رسالة يؤديها إليها ، رسالة من العمل المثمر والجهد الإيجابى الذى يدفع عجلتها إلى الأمام ، والقوة التى ينفخها فى كيانها من روحه ، ثم هى تمنحهم أجورهم بعد ذلك مقابل ما يمنحونها من قوة وحياة ، تمنحهم بقدر ما يمنحون ، فأكثرهم حظاً منها ، أكثرهم نفعاً أو عملا لها .. فما جدوى هؤلاء العجزة على الحياة ؟ وأى رسالة أدوها إليها . غير الكسل والقعود والغطرسة على عباد الله العاملين ؟

ترى هل اختل قانون الحياة ، فأضحت تمنح العجزة والكسالى وتحرم العاملين الدائبين ؟ . . إن قانون الحياة لا يتخلف ، وليس للعاجز إلا أن يعيش على عطف العاملين ، وفضل ما يجودون به

(*) ص ٩٠ من كتاب تذكرة الدعاة للمؤلف طبعة دار الكتاب العربى .

عليه . . إذا فكيف عكست الأوضاع وغدا الفقر والعرى ، والجوع ، والضعف من نصيب العاملين ، وانتقل المال والأمر والنهى إلى جانب المتعطلين القاعدين ؟ . .)

أيها الشباب إذا كنت تنشد الإصلاح حقا ، فدع الهتاف والجرى وراء الأفراد والهيئات ، وانظر إلى الحياة هذا النظر الصادق العميق ، واجعل إصلاحك قائما عليه .

وها نحن أولاء قد جلونا لك ناحية من نواحى أمراضنا الاجتماعية ، فعليك أن تتوجه إليها بالعلاج فى حزم وحكمة فذلك خير لك من الاستماع إلى ضلالات الذين يشككونك فى دينك ويزعزعون ثقتك به .

خير لك أن تبحث أين يعيش لصوص الحياة ، وما نخالك تجهل أين يعيشون ، فإذا عرفتهم فعليك أن تمنحهم من نفسك كل ما يستحقه اللص العادى من الاحتقار والاستقذار ، ولو كانوا من كبار القادة والزعماء ، فإن هذا من وسائل العلاج النافعة ، ولن يستقيم لنا خلق ، أو تصح لنا حال ، ما دمنا نسخو بالاحترام على أهل الثروة ، وفيهم المجرم وغير المجرم ، بينما ننظر إلى الضعيف الشريف الذى يأكل رغيفه بعرق جبينه ، نظرة الهوان والازدراء

عليك أن تصحح هذه الموازين ، ليسلم لك المجتمع النموذجى الذى نحلم به ونعمل له .

على كل منا أن يدفع ثمن ما يأكل . . فكل من يدفع هذا

الثمن ، فهو الرجل الشريف ، وكل من يأكل دون أن يدفع ، فهو آثم لص لا شرف له ولا كرامة ؛ وهو عنصر عفن لا يورث الحياة حوله إلا العفونة والفساد ، وقد أوجب الدين علاج هذه العناصر ، بما يقطع شرها أو يصلح أمرها .

فيأيها الذين يجرون وراء الأشخاص والهيئات ، ويرهقون حناجرهم بالهتاف الفارغ وغير الفارغ ، إليكم هذا المعنى فاجتمعوا عليه واعملوا له .

« العمل ضريبة الحياة . . . أو هو ثمن الحياة » .

اعملوا أن يكون لكل عامل ثمر عمله كاملا ، ولكل قاعد ثمر قعوده كاملا . ليس له أكثر من ذلك أو أقل ، « ولا يظلم ربك أحداً » .

العمل حق لكل إنسان :

والآن فلنعد إلى الآية الكريمة مرة أخرى ، لنقرأ : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا . . . الخ .

فنرى أنها تجعل الناس جميعا شركاء فى هذه الأرض ، لأن الله يخاطبهم بقوله : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا »

وما دام الإنسان لا يصل إلى حقه المشروع فى هذه الشركة إلا بالعمل فمن حقه أن يعمل ، ومن حقه أن تتاح له فرص هذا العمل ، وليس لأحد كائنا من كان ، أن يحرمه هذا الحق أو يحول بينه وبينه . . .

على السلطة الممثلة للمجتمع ، أن ترعى هذا الحق ، وأن تمكن كل عامل من أن يعمل ، وأن تفتح له الأبواب إذا سدت . . . عليها أن تزيل ما أمامه من العقبات المصطنعة وغير المصطنعة ، ولن تقدس أمة لا تقوم السلطة فيها على رعاية أمثال هذه الحقوق

ليس من قصدنا فى هذه الكلمة ، أن نعدد أسباب التعطل ولكننا نقرر حق كل إنسان فى العمل ، ونسجل هذا الحق لنرتب عليه نتيجتين طبيعيتين :

الأولى : أن كل إنسان أو جماعة تعمل لحرمان أحد من العمل بوسائل مباشرة أو غير مباشرة ، فعملها غير مشروع وهو جريمة اجتماعية تحمل فى جوهرها معانى السلب والنهب ، بل تحمل فى جوهرها معانى الحكم على الناس أن يموتوا من الجوع ؛ فعلى السلطة الشرعية حينئذ أن تقف كلا عند حده ، وأن تحمى كل إنسان أن يقع عليه مثل هذا العدوان ؛ ولا تستطيع حكومة أن تحمل صفة الشرعية إذا هى تواطأت مع الأقوياء على الضعفاء أو تهاونت وسمحت على الأقل بوقوع مثل هذه الجرائم .

الثانى : أن المرء قد يتعطل وهو قادر على العمل ، ولكنه قليل الحيلة ، لا يدرى ماذا يعمل ، ولا أين يتوجه ؟

فواجب ولى الأمر حينئذ أن يبحث له عن عمل فورا ، وإلا أعطاه من المال ما يسد حاجته حتى يجد له عملا .

مسئولية الدولة عن الفرد :

فالدولة مسئولة عن الفرد فى جميع حالاته عاملا كان أم عاطلا. هذا هو حكم الشريعة الإسلامية : « فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والإمام راع وهو مسئول عن رعيته » . . ولست أفهم للمسئولية معنى إذا لم يكن الحاكم مسئولا عن أهل البطالة من رعيته ، مطالباً بتعهد أولئك العاملين الذين لايحصلون على الكفاية من أجورهم . . وإن معانى المسئولية تصبح كلها لغواً وخداعا ، إذا انسلخت مسئولية الراعى عما يهدد رعيته من الجوع والحرمان .

فالدولة ملزمة أن توجد للعامل عمله ، وإلا أعطته من المال ما يكفه عن السرقة والسؤال ؛ حتى لايذله الجوع ، ويضعضعه الحرمان ، ويسلمه اليأس إلى النقمة والقعود عن واجبه نحو المجتمع

لما قيل أن مصر ستعلن الحرب على الألمان أو على غيرها يوما ما سمعت عاملا يقول لآخر : فليذهب الأغنياء وأبناء الأغنياء ليقاتلوا ؛ فإنما يدافعون عن أموالهم ولذاتهم ، وما هم فيه من نعيم . أما نحن فماذا لنا فى هذا البلد ندافع عنه ؟ ماذا لنا غير الجوع والعرى والذل والمرض ؟ .

لم أتهم وطنية هذا العامل ؛ وإنما اتهمت أولئك الذين ظلموه واضطهدوه ؛ حتى جعلوا الحياة فى فمه مرة المذاق ، ورحم الله الشاعر السابق إذ يقول :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر فى ثمره

ولو كانت موازين العدالة عندنا حساسة مرهفة تقيم القسط بين الناس وتقدر لكل عامل عمله ، وترعى لكل ذى حق حقه ، لألفينا هؤلاء يتقدون حماسة ويشتعلون وطنية ويبذلون فى سبيل بلادهم كل مرتخص وغال .

وأن هذا لا يكلف الدولة قليلا أو كثيراً ، لايكلفها إلا أن تدرك واجبها ، وأن تفقه معنى الولاية على الناس ؛ ثم تعمل بما تدرك وتفقه ، ففهم حقيقة الأعباء ، والرغبة فى القيام بها ، هما دائما فى كل الأمور سبيل الإتقان وميزان الإحسان فيها على خير وجه . . والدولة بإدراك أعبائها ، وفهم حقيقة مسئوليتها ، وقيامها فعلا برعاية حقوق الناس ، لن تخسر شيئا ، لأنها ستكسب العامل ؛ وإذا كسبت العامل فقد كسبت كل شىء . . كسبته مواطنا شريفا بعيدا عن مواطن الجريمة ؛ وكسبته جنديا شجاعا غيورا على حرمات بلده ، يبذل دمه عند الخطر فى سبيل مقدساته ؛ وكسبته قوة عاملة ناجحة فى ميدان الانتاج والاقتصاد . . وكسبته رمزا ممثلا لعزتها وصلابة جوهرها لا عنصرا متضعضعا من الذل ، والخنوع ، والهوان ، والتضور .

ولقد أدرك كثير من الدول هذه الحقائق والمعانى فى العصر الحديث ، واعترفت بوجوب رعاية الإنسان ، وحقوق العامل ، وانشأت لذلك وزارات أو إدارات ترعى هذه الحقوق ، وتكفل

لكل عامل عمله ، وكفاءه من الأجر ، وترد عنه ظلم الطامعين ، وجشع المستغلين من أصحاب العمل ، ورءوس الأموال . .

أنصاف الآلهة فى مصلحة العمل :

ونجد أنفسنا فى هذا المقام — مع الأسف الشديد — مضطرين إلى الشكوى من الأسلوب ، والعقلية التى تسود « مصلحة العمل » عندنا .. ومصلحة العمل هى الإدارة التى أنشأتها الحكومة للنظر فى مصالح العمال ، وحل ما ينجم من المشاكل بينهم وبين أصحاب العمل ، فكانت بلاء على العمل والعمال ! ! ولا نعرض هنا لما يهمس به العمال أو يجهرون به فى أوساطهم من وقوع الموظفين أو كبار الموظفين تحت سلطان الهدايا التى تقدم من رجال الأعمال ، فذلك عليه عند الله ، وإنما نعرض لأسلوب الغطرسة وعقلية انصاف الآلهة التى تسيطر على هذه المصلحة ، كأنما سوء الحظ لم يكتف بالقوانين الناقصة المبتورة ، حتى أقام عليها حكاما من شر خلق الله فهما للواجب ، وأسوئهم تقديرا لمعانى الإنسانية !!

يتعطل المتعطل فيذهب إلى مصلحة العمل ليخطرها بحاله وهذا إجراء سليم لا غبار عليه ، بل إنه واجب ينطوى على معان كثيرة خطيرة . ولكن رجال المصلحة لا يدركون هذه الحقائق ولا يشعرون إلا بأن العامل مخلوق بغيض ، وقح ، حقير ، لا يستحق شفقة ولا رحمة ، والويل له إذا جاء يشكو أو يطلب عملا ،

فهناك إدارة الأمن العام تجرد عليه خيلها ورجالها محافظة على مزاج رجال المصلحة أن يتعكر . أو ليست المحافظة على هذا المزاج من أخص شئون الأمن العام للدولة ؟

لا يا هؤلاء . إن العاطل حين يخطر ولى الأمر بعطله إنما يؤدى واجباً وطنياً خطيراً ، ويعلن عن معان سامية فى نفسه .

إن تعطل العاطل معناه وقوف قطعة من آلة العمل الكبير للوطن توشك أن تؤثر على غيرها ، فإذا تنبه المسؤولون المخلصون بادروا بعلاجها وإدارتها ، أى أوجدوا عملا للعاطل ليعود دولاب الاقتصاد العام إلى نشاطه .

ومعنى تعطل العامل ، أن قوى الإنتاج أصيبت بنقص وهبوط ، وهل الإنتاج إلا الدعامة الأولى للحياة المادية فى الأمم ؟

ومعنى تعطل العامل ، أن الأمة أصيبت بآفة اجتماعية خطيرة تستهلك ولا تنتج ، وتأخذ ولا تعطى . ولا بقاء لموارد البلاد على هذه الحال التى تبتلع ولا تعوض !!

ومعنى تعطل العامل كذلك ، أن قلبه أصبح معرَضاً لجراثيم الجريمة والسرقة ، تبيض فيه وتفرخ ، فإذا ترك وشأنه ، بلغ الغاية من الفساد والشر .

ليس أعدل فى الوجود من قضية العامل الذى يتعطل ، فيقصد ولى الأمر ليخبره بعطله . . وليس أشرف فى الوجود من ذلك الذى رأى أن التعطل يسلمه إلى الحاجة ، والحاجة

تسلمه إلى الذل ، وإلى السرقة وأنواع الجرائم ؛ فربأ بنفسه أن يعرض شرفه لهذا المصير . فعرض أمره على ولى الأمر ... أفهؤلاء يستحقون المطاردة فى كل مكان ، يدق البوليس رءوسهم بالهراوات ، ويسحق أجسامهم بمختلف الكدمات ؟

أيها الناس : اعلموا أن العمل هو قانون الله لعمران هذه الأرض ، فإذا كان العمران لايعنيكم ، فاعلموا أن العمل هو الوسيلة الطبيعية المشروعة لتحصيل القوت والرزق ؛ ولا وسيلة له غير ذلك ؛ فإذا فقدالرجل هذه الوسيلة ، فقد فقد حقه المشروع فى هذه الحياة . . . فإذا طالب بالعمل فإنما يطالب بحق أزلى ، لابصدقة أومنحة . . . وعلى الدولة أن تجيبه إلى هذا الحق ؛ وإلا فلن يقدس حق آخر إذا قوبلت هذه القضايا بالهوان والإهمال . إن العامل إذا طلب العمل ، فإنما يطلب أن يعان على شعيرة دينية أمر بأدائها . والله سبحانه يقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » فإذا قعد ولم يمش ، فقد عصى الله وخالف أمره . وقد رأينا القرآن الكريم يأمرنا أن نذر البيع وسائر الأعمال حين تحين صلاة الجمعة ، ثم يأمرنا فيقول : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . ومعنى هذا أن المرء مقسم بين سعى وصلاة وعمل وعبادة ، ومسجد وسوق ، فمن قعد عن العمل أغضب الله كمن قعد عن الصلاة ! ومن ذهب إلى ولى الأمر ليطلب إليه عملا فهو ساع

فى عبادة الله ؛ كمن يذهب إليه ليمهد له سبيل الحج أو أية شعيرة دينية أخرى .

وأما أنتم أيها العمال فاعلموا أن الدين يحضنكم ، والإسلام يقدس حقوقكم ؛ فإذا ناديتم بهذه الحقوق ؛ فاهتفوا معنا بالإسلام الذى قدسها ؛ ورفعها إلى مقام الشعائر الواجبة .

الرسول يقرر حق العامل فى العمل :

روى البخارى وغيره ، أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، يطلب إليه أن ينظر فى أمره لأنه خال من وسائل الكسب ، ولا شىء عنده يستعين به على القوت . . . وهنا ذكر الرواة كلاما آخر ، قالوا بعده ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بقدوم ، ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ، ثم دفعها للرجل ، وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له ، وكلفه أن يعمل هناك لكسب قوته ، وطلب إليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ؛ فعاد الرجل يشكر لرسول الله صنيعه ، ويذكر له ما صار إليه من يسر الحال .

فإذا عرفت أيها الأخ أن الله لم يرسل الرسل ليتسلى الناس بأخبارهم ، وحكاياتهم ، بل لتكون أعمالهم وأقوالهم شرعا واجب الاتباع . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » إذا عرفت هذا أدركت أننا فى هذه الحادثة ، أمام شرع عمالى مقدس

شرعه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سرنا عليه واتبعناه، أرضينا الله ورسوله وأسعدنا المجتمع والعمال ، وإذا أبطلناه وخالفناه ، فقد تعرضنا لغضب الله وعذابه . وفساد المجتمع وشقاء العمال ، « ولا يظلم ربك أحدا » « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ونحن نخرج من هذه الحادثة بالمبادىء الآتية .

الأول : أن العاطلين كانوا يرون لهم حقوقاً على الدولة فيذهبون إلى ولى الأمر باسم هذه الحقوق ، ليدبر لهم أمرهم بما يراه . . وكانوا يذهبون بملء الكرامة والعزة ، لأن صاحب الحق لا يكون ذليلا . . . وما نظن طلاب الأصلاح يحلمون بخير من هذا .

الثانى : أن الدولة تقر العاطلين على هذه الحقوق ، وتعترف لهم بها ، ولا تنكرها عليهم ، بدليل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمع إلى شكاية الرجل ولم يزجره . . . وأقره على حضوره إليه ولم يطرده .

وهذه إنسانية سامية لا تنبع إلا من معين الإسلام ، فلعل شرار خلق الله من أهل الكبر والغطرسة ، الذين يضيقون بالعمال ويزجرونهم يتعظون بهذا الهدى النبوى ويعملون به .

الثالث : أن الدولة لا تكتفى فقط بالاعتراف بحقوق العاطلين ، بل تدبر لهم العمل فوراً ، ولا تتركهم إلى التسويف

والمماطلة ؛ فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يأمر الرجل بالانصراف إلا بعد أن دبر له العمل والمكان الذى يعمل فيه . وهذا أقصى ما تطمح إليه أنظار العمال فى العالم .

الرابع : اطمئنان الدولة على يسر العامل ورخائه ، فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يكتف بإيجاد العمل للعاطل ، بل طلب أن يعرف ما صارت إليه حالته ليطمئن عليه . وهذا هو السمو الذى تفرد به الإسلام ، ولم تصل إليه شريعة من الشرائع ، ولا نظام من الأنظمة ، وما نظن العمال طمعوا فى مثل هذا . . . ولكنه الإسلام دين الله ، ونعمته الجامعة لكل خير وسعادة .

الخامس : وهذا المبدأ الخامس أشار إليه الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء ، إذ ندب ولى الأمر بعد كل هذا أن يزود العامل بآلة العمل ، فللنجار آلة النجارين ، وللحداد آلة الحدادين وهكذا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جهز الرجل بآلة العمل ، إذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ، ودفعها إليه . . ولم نجد فيما نعلم شريعة نصت على مثل هذا ، فإذا وجدت فهو نهاية ما يطمح إليه العمال من أنواع الرعاية والكرامة والحنو

أيها الحكام : هذه شريعة رسول الله غراء ناصعة ، فإن أصغيتم إليها وعملتم بها ، أرضيتم الله وانصفتم أنفسكم ، وأسعدتم الناس . . وإن أصررتم واستكبرتم ، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، يقيمون حدوده ، وينفذون شريعته ، ويعلون كلمته ، ويومئذ

يفرح المؤمنون بنصر الله ، ولتعلمن نبأه بعد حين . .

مبدأ تقدير الأجور :

استحقاق الأجر على العمل بدهية لا تحتاج إلى دليل ؛ فالعمل هو الوسيلة الطبعية الأولى لاستحلال خيرات هذه الأرض .

وليس هناك من عمل لا أجر عليه إلا أن يكون صاحبه رقيقاً ؛ وقد مهد الإسلام تمهيداً قوياً لإلغاء هذا الرق ، حتى قضى عليه نهائياً فى العصور الأخيرة .

والإسلام يهتم أشد الاهتمام بتقرير أجر العامل على العمل ، حتى ليشترط فيما يشترط أن تكون قيمة الأجر معلومة محددة ، وذلك قوله عليه السلام : « من استأجر أجيراً فليسم له أجرته » حتى يطمئن خاطره إلى قيمة ماله من أول لحظة ، ولا يتعرض فيما بعد لأى احتمال من احتمالات الغبن ، حتى أنهم قالوا إذا استؤجر جزار على ذبح شاة ، وله فى نظيره جلدها ، لم تصح الإجارة ، لما فى ذلك من احتمال الغبن ، إذ قد يكون الجلد رقيقاً حيث لا يكون رائجاً إلا الغليظ ، أو غليظاً حيث لا يكون رائجاً إلا الرقيق ، أو قد تظهر به عيوب ليست واضحة قبل السلخ .

وهذه حساسية فى الاحتياط امتاز بها الإسلام دون سائر القوانين ، فى كفالة مثل هذه الحقوق ؛ ولا شك أن العامل

يجد فى هذا الحنان والرعاية والحرص عليه ما يزيده إيماناً بدينه وحباً له

ولا ريب أن هذا الشرط مما يسد ذرائع المماحكات أمام أولئك الذين يستضعفون العامل ، فيفتحون له باب المساومات على أجره بعد أن يكون قد انتهى العمل .

أساس تقدير قيمة الأجر :

والعمال قاطبة نوعان :

الأول : لا يفرد نفسه لصاحب العمل ، ولا يتقيد بخدمته دون غيره ، فهو لكل الناس .

وحكم هذا الصنف أن يتقاضى الأجر المتفق عليه .. فإذا كان العمل مما يجرى فيه العرف بأجر المثل فى البيئة ، أخذ أجر المثل كما يحصل عادة مع الحلاقين ، ويقوم العرف الشائع حينئذ مقام الاتفاق والعقد ، فلا ضرورة لتعيين الأجر فى مثل هذه الأمور مادام العرف الطبيعى العادل قد قام بتعيينه .

وقد يحصل أن تتأثر البيئة بعوامل الجور والطغيان ، فلا يصبح للعرف قيمة ، فعلى العامل حينئذ أن يتمسك بحقه الذى سنه له الشرع : « من استأجر أجيراً فليسم له أجرته » ، وعن أبى سعيد « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن استئجار الأجير حتى يبين له أجره » .

أما النوع الثانى : فهو الذى يفرد نفسه لصاحب العمل ، ويتقيد بالعمل فى بيته ، أو أرضه ، أو مصنعه ، أو تجارته أونحو ذلك . . وهم صنفان :

الأول : يقيم مع صاحب البيت فى بيته .

والآخر : ينفصل عن الإقامة معه ، كعمال دور الصناعات والشركات ونحوها الآن .

أما أولئك الذين يقيمون مع رب المنزل فى بيته ، فقد سن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمى ما يمكن أن يتصوره دعاة الإصلاح من قواعد الحرية ، والكرامة ، والكفالة ، إذ قال : « إخوانكم خولكم ، خدمكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

ومن اللؤم والخسة أن يظن صاحب المال نفسه أكرم وأفضل من العامل .. ومن الجهل والانحلال أن يشيع فى المجتمع أن الخدمة فى أى صورة من صور الحلال منقصة لقدر المرء .. !

ولسنا نذهب إلى ذلك ، اعتزازاً بمعنى الحرية وتقريراً لقاعدة المساواة المطلقة بين الناس فحسب ، بل إن العقل نفسه يوجب ذلك ، وهو الفيصل فى شئون الإنتاج والاقتصاد .. إننا لا نستطيع أن نتصور سبباً ما ، أو حجة يستند إليها هذا الأحمق فى ادعاء

الأفضلية أو الشعور بها ! ! ألأنه صاحب مال ؟ . . . فمن قال إن المال فى يد الرجل يكسبه شرفاً وخصوصية من خصائص الامتياز ؟ ومن قال إن هـذا المال إذا زال عن صاحبه زالت عنه آدميته ، واعتبر متاعاً ساقطاً مهدر القيمة ؟

إذا جاز لهذا الجاهل أن يستطيل على العامل بأنه صاحب المال ، فلماذا لا يستطيل العامل عليه بأنه صاحب القوة والفن والملكة ؟ وماذا يساوى المال إذا تنحت عنه القوة العاملة والملكة المدبرة ؟

لقد أكثر الاقتصاديون من المفاضلة بين المال والعمل وأثر كل منهما فى الإنتاج ، فمن قائل بأنهما سيان ، وقائل بأن العمل أهم ، وثالث بأن المال أقوى . . وعلى أى حكم من الأحكام الثلاثة فالعامل ليس كلا على صاحب المال ؛ فهو صاحب ملكة وموهبة وثروة معنوية تفوق ثروة المـال عند من رأى ذلك من الاقتصاديين ، أو تساويه ؛ فاذا لم تكن له السيادة على صاحب المال فمن الغباوة والحمق أن يعتبر خلقاً ذليلا هيناً لا قدر له .

ومن المؤسف أن ينحدر المجتمع فى تقديره للحقائق والمعانى ، وقيم الأشياء ، فيجارى هذا الحمق الذى يعتبر العامل فى المنزل أو المصنع فئة ليس لها فى المجتمع من المكانة والقدر مالغيرها .. وتستطيع ربة المنزل — مثلا — أن تسأل نفسها ماذا تساوى النفخة الكاذبة فى صدرها إذا تركتها الخادم وغادرت منزلها ؟

ألا تمد يدها إلى الأطباق والمكنسة وأنفها راغم ؟

فإذا كانت عاقلة سألناها : أشعرت يا سيدتى حين امتدت يدك إلى الأطباق والمكنسة وطست الغسيل . أنك صرت مخلوقاً لا إنسانية له ولا كرامة ولا اعتبار ؟

نقول هذا لندل على أن مجتمعنا تنقصه التربية الصحيحة : تربية النفس ، وتربية العقل .. ولن يكون مجتمع ما كريماً مهذباً إلا إذا كان فاضلا فى نفسه ، كاملا فى عقله ، يزن القيم ، ويقيس الأقدار بالنظر الصادق السليم ، لا بنظر المخلوق التافه الحقير الذى ينتحل لنفسه امتيازاً من لا شىء .

ولقد أحس جهلة الشيوعيين انحراف ربات البيوت وأصحاب الأعمال عن النظر الصادق إلى قيمة العامل فى البيت أو المصنع ، فكان من قواعد نظامهم تحريم الخدمة الخاصة فى المنازل ، وتحريم ملكية المصانع ، حتى لا يقع إنسان فى خدمة آخر .

ولا يسبقن إلى وهم أحد أن هذا حسن ؛ فليس من العبقرية أن يستنكر الإنسان تطاول أحد على آخر ، فهو فطرة فى النفس بل فطرة فى الحيوان . وليس من الاستكشاف الخطير أن يقال إنه لا فرق بين إنسانية الخادم وإنسانية ربة البيت .

ذلك أمر مرجعه إلى الفطرة يحسه الحيوان كما قلنا دون أن يدعى لنفسه عبقرية فى الفكرة أو المبادىء . إنما العبقرية أن تظل الأوضاع وأساليب الرزق على ما يقضى الله ، وتقضى به قواعد

العمران السليمة . وأن تنصرف الجهود والعبقريات إلى معالجة أس الفساد ، ومنبع الطغيان والجهل وهو « النفس » . أنهم لو فعلوا ذلك لأسدوا إلى جوهر الإنسانية خيراً كثيراً ، ولأهدوا إليها النور الذى تمشى به إلى الرقى الحق ، والكمال المنشود .. إذ لم يكن العيب عندهم أن الخادم كانت تعمل فى البيت ، وإنما العيب أن ربة البيت كانت شريرة قذرة خسيسة النفس لئيمة الطبع ، وكان صاحب المصنع وصاحب رأس المال من هذا الطراز . فلو أن القائمين على الإصلاح لهم بصائر وإدراك عميق لحقائق الحياة ، لاتجهوا بإصلاحهم إلى علاج الإنسان نفسه ، ووضعوا له من سنن الرقى ومناهج التهذيب ما يصير به خلقاً آخر ؛ ولكنهم عالجوا الجهل بجهل مثله ، وواجهوا قصر النظر بقصر آخر من جانبهم . فتركوا الشر الكامن فى النفوس على حاله ورفعوا يد المرء عما يملك وسموا ذلك إصلاحاً ملئوا به الدنيا صياحاً وجعجعة ، فكانوا كالذى رأى معتوهاً يضرب الناس ويقذفهم بالحجارة أينما سار ، فعالج أمره بربط يديه إحداهما إلى الأخرى . . ولو أنه ذهب به إلى أحد المستشفيات لأهدى منه إلى المجتمع بعد قليل ، مواطناً مهذباً فاضلا ، علاوة على ما يتسم به هذا العمل من الرحمة والنبل وسمو العاطفة.

إن الخدمة فى البيت أو الحقل أو المصنع ما برحت عملا شريفاً لا يغض من قدر صاحبه ما دام يبغى أن يعف نفسه

ويكفها عن الحرام . والإنسان على هذا الاعتبار عنصر ضرورى للإنتاج والعمران ؛ وخدمته منطق اجتماعى لا حول عنه فى البيت أو المصنع أو غيرهما . ولا غنى عن ذلك أبداً ، فهو سنة الله ، لا سبيل إلى تغييرها . فكل إنسان صغيراً كان أم كبيراً داخل فى خدمة الآخر ؛ وكل فئة تخدم أختها دون أن تشعر على نحو ما قرره الشاعر الأول .

الناس للناس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والله سبحانه يقول : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً . ورحمة ربك خير مما يجمعون » فادام الناس متفاوتين فى الأمزجة والميول .. وقوى البدن وملكاته .. ودرجات الذكاء ومذاهب الفكر .. ونوع الشخصية التى يحملها المرء ، فلن يستغنى أحد عن خدمة الآخر ؛ ولن تكون الخدمة فى البيت حينئذ أقل شرفاً من الخدمة فى أى مكان سواه . ولن يكون الجند فى ميدان القتال أقل جدوى وأثراً من القائد العبقرى القابع خلف الصفوف . بل لن يكون كناس القمامة فى الشارع أقل فائدة للمجتمع من الطبيب .. وإن ما تواضع عليه الناس — جهلا — أنه عمل هين لم يمنع صاحبه فى القديم أو الحديث أن يضطلع يوماً ما بمهمات الأمور وجلائل الأعمال . وها هم أولاء رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه ، يخرجون من أعمال الحدادة والخياطة ، إلى أعمال الهداية والرسالة ؛ وينتقلون من رعاية الغنم إلى قيادة الشعوب والأمم .

وإنك بالتأمل القليل لا ترى فى الأمر مثقال ذرة من عيب أو نقص يلحق المرء إذ يشتغل ببيت من البيوت . بل إن حاجة البيت إلى هذا الأجير قد تشتد وتعظم حتى يعتبر قبوله للعمل نعمة وفضلا . ونحن لا نسوق الكلام على عواهنه . فهو نظر الإسلام الصادق . وتقريره لقدر الخدمة وفق حاجات المجتمع وهذا موسى عليه السلام — أجر نفسه ثمان سنين أو عشراً قضاها فى بيت شعيب عليه السلام ، دون أن يرى فى ذلك عيباً يلحقه . بل دون أن تقصر تلك الخدمة فى ترشيحه لرسالة التحرير الرائعة التى نازل فيها أكبر طاغية علا فى الناس وادعى الربوبية فيهم .

ما كان فى خدمة موسى من هوان ما دام يؤدى عملا شريفاً يستحق عليه ما ينال من نفقة وغيرها . بل إن حاجة بيت شعيب كانت أشد ما تكون إليه حين أسرع الشيخ الوقور فقال : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج » ويزيد ويقول فى شعور المضطر : « فإن أتممت عشراً فمن عندك » . ولا شك أن منطق هذه الحاجة الملحة ، يقنعك بشرف مكان الأجير فى البيوت . بل إنه يقنعك أن خدمة موسى لهذا البيت الشريف كانت من أجل النعم التى ساقها الله إلى أهله . وتستطيع أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، فهذا الأجير الذى يعاف الجهلة مكانه لم يكن جهده أن يرعى غنم هذا البيت فحسب ، بل إن الله أجرى لهم من المنعة على يديه والعزة به ، ما نقلهم من حال الهوان

والضعف إلى المقام الذى لا يطاول فى مدين بأسرها . . ولا شك أنك تعرف أن موسى لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء . . . ثم قالتا فى انكسار ، وأبونا شيخ كبير ، . . لقد قالتا له : إن هذه هى حالها ، وعادتهما التى لزمتاها مذ أقعد الضعف أباها عن الكدح والمنافسة ، ولا قدرة لها على مدافعة هؤلاء الأقوياء من الرعاء ، فهما تصبران على تلك الحال من الهوان حتى ينصرف الجمع .

وأيسر هذا الهوان هو الانتظار وتأخير قضاء المصلحة ، أما مُرّه الذى لا تقبله النفوس إلا على ضيم وضيعة وضعف ، فهو أنهما لا تردان البئر إلا بعد أن تكون الدلاء قد استنفدت الرائق من جمامها ، وضربت فى جوفها حتى أثارت طينه وعكره ، فلا تجدان بها إلا ذلك العكر ، وإلا ذلك الماء الملوث الذى أريق بفعل الرعاة تحت أقدام الإبل وأفواه الغنم ، وأخذ يرتد عائداً إلى بئره حيث كان . . . وهوان تلك الحال ، لا يقدره إلا من خبر عيشة البادية ، ولذا كان من الكنايات التى عبر بها العربى عن عزته وذل غيره ، قول بعضهم :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً
ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

ثار الغضب فى رأس الشاب الذى ادخرته العناية الإلهية لرسالة

التحرير ، وغلا الدم فى عروقه ، ونهضت الهمة فى إهابه العزيز ، فإذا به يدفع بذراعيه الفتيتين بين أولئك الرعاة الغلاظ ، فتتنحى لفتوته الجموع ، فما هو إلا أن يسقى للمرأتين ، وينتصف لضعفهما من جفوة الأنانيين ، ويزيل من قلبيهما كسرة الهم والذل ، ومن حلقيهما غصة الشجى المرير ؛ وكأنما لم تشرب غنمهما ، وإنما شربت كل منهما شربة ، لم تعهد لها طعما فى قلبها قبل اليوم . . . ثم تولى إلى الظل ليخاطب ربه « رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير »

نعم فهذا نوع من الأجراء يدخل البيت لا ليؤدى عملا يؤجر عليه فحسب ، ولا يسد ثغرة ضاق عنها جهد مواليه فقط ، بل ليعزهم الله به من ذل ، ويرعاهم من ضيم ، وتلك غاية يجب أن يفهمها ويستشعرها كل من أجر نفسه فى بيت من البيوت . . ! . . هذا شأن الخدمة فى المنازل ، وهذا نظر الإسلام إليه ، ويستطيع من ابتلوا بالنظر السقيم أن يعالجوا خطأهم على ضوئه ، ويستطيع أهل النظر العميق أن يقيسوا ماعندهم عليه ايرواسبق الإسلام إلى تقرير أوضح الحقائق ، وأصدق المبادىء ، وأسمى المثل منذ أربعة عشر قرناً ، يسوقها فى هذا المثل القوى ، الجلى ، الواقعى ، الذى لا يكتفى فى إعلان كرامة الأجير بجعله كفؤاً لابنة سيد البيت ، بل يعلن أن مايؤديه فى البيت من عمل يبلغ فى القيمة وسمو التقدير أن يكون مهراً لابنة السيد ! . . . وأى سيد ؟! . . أحد أنبياء الله المرسلين ! !

وقد يقول قائل : إن موسى كان حقاً أجيراً فى بيت من البيوت ، ولكنه كان فى بيت نبى لم يلق فيه من الهوان ما يلقاه سائر الخدم والأجراء فى البيوت الأخرى ! . . وكأنه بهذا لا يعترض علينا — من حيث لا يشعر — بل يقرر ما قررناه ، من أن العيب ليس أن يأجر الأجير نفسه لبيت من البيوت ، وإنما العلة فى النظر الخسيس الذى يعبث بموازين القيم وأقدار الناس وما كانت مثل هذه الأمراض يوماً من الأيام بالحكم الذى ترضى حكومته ، بل هى الداء الذى ما أرسل المرسلون إلا لتطهير النفوس منه ، وإبرائها من ذلته وعبوديته .

ولقد أعلن رسول الله فى الحديث الذى رويناه آنفاً مبادىء ثلاثة : « إخوانكم خولكم ، خدمكم » ... فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس . . ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

ولا تنس هنا أننا نتكلم عن أجر الأجراء الذين يقيمون مع رب البيت فى بيته ، فقد سن لهم الإسلام هذه المبادىء الثلاثة :

أما الأول : فهو الأخوة .. فالعامل أخو صاحب رأس المال والخادم أخو رب البيت . . وأخص خصائص الأخاء ، المساواة التامة بين الطرفين أو بين الأخ وأخيه ، فلا فاضل ولا مفضول ولا كبير ولا صغير ، ولا عزيز ولا ذليل ، ولا غنى ولا فقير .

والإخاء حين يفرض هذه المساواة، لا يكتفي بالتسوية بين النظير ونظيره ، كما يكتفي مقوم السلع بأن هذا يساوى ذلك . . لا . . . إنها المساواة التي تجعل هذا من ذاك ، وذاك من هذا ، كلاهما بعض الآخر وجزء من طينته ، وهل الإخاء إلا السر الذى يخلط الدماء ، ويشق الجميع من رحم واحدة ، وينحدر بهم من الأصل الأعلى ؟!.

فمن كان من أصحاب الأعمال أو البيوت ، ومن كان من العمال والأجراء على غير هذا الوضع ، فليعلم أنه رجس من عمل الشيطان ، وأنه يجافى ما سن الله ورسوله ، وينقض أصلا فطرياً من الأصول التي بنيت الحياة عليها ، أى ينقض الحياة نفسها ، ويهدم صرحها وإن الراضى بهذا الرجس كالمشارك فيه ، كلاهما بوء بغضب الله الا أن يسعى لتغييره وإزالة آثاره .

ولا شك أن هذا الأصل مقرر أيضاً للعمال الذين تنفصل إقامتهم عن بيت صاحب العمل ، ويشتغلون بمنزل خاص ، لأن الحديث الشريف لم يقم فاصلا بين هذا وذاك ، إذ الإخاء هو الوصف الطبيعى للسر الذى يوحد بين الناس جميعاً ، ومما يجب تقريره هنا تدعيما لقاعدة الإخاء والمساواة ، أن الإسلام يجعل العبد الرقيق — وهو دون الخادم الحر فى الاعتبار الاجتماعى — كفؤاً للزواج من ابنة سيده !

والمبدأ الثانى : هو الذى نرى فيه الرسول كأنه يقصد أجراء المنازل ، أى الأجراء الذين يساكنون صاحب العمل فى بيته ،

ويعملون فى داخله أو خارجه ؛ وهو المبدأ الذى يقرر : « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس » .

ومعنى ذلك :

١ — أنه لا يقل أجر الأجير الذى ينقطع لصاحب رأس المال عن كفايته من الطعام والثياب أما المسكن فهو يساكن صاحب العمل فى بيته .

٢ — وأنه لا يقل مستوى كفاية الطعام والثياب من حيث الجودة ، عن المستوى الذى يعيش فيه صاحب العمل وسائر أفراد أسرته . ما دام العامل يعيش معهم فى بيت واحد . . أى أنه لا يكون لصاحب البيت وأسرته طعام ولباس غير الطعام واللباس الذى يأكل منه الأجير ويلبس . ولا نحب أن نستطرد هنا إلى تلك الخسة والحقارة التى تسول لأدنياء النفوس من ربات البيوت وأربابها أن يجعلوا للخادم طعاماً ولباساً أدنى مما يأكلون ويلبسون .

٣ — إن الحديث الشريف يقرر الحد الأدنى فقط . . . أما ما فوق ذلك فلم يعرض له ، لأنه متروك للظروف وتقدير الاعتبارات المختلفة . وبذلك يفتح الإسلام أمام الأجراء كل باب لجلب الثراء وتحصيل المال كفاء ما يقدمون من عمل .

ولسنا فى هذا مبالغين أو متعسفين . فالحد الأدنى هو الملحوظ فى الحديث . أما الأعلى فلا ذكر له ولا ظل ولا رائحة ، ويسندنا

فى هذا أن موسى عليه السلام لم يأجر نفسه بكسوته وطعامه فقط بل كان هناك ما فوق ذلك ، هو زواجه من ابنة سيد البيت . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سورة القصص فلما بلغ قوله تعالى : « إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك » قال : « أجر نفسه والله ، على عفة فرجه ، وطعام بطنه » .

ولا شك إن امتداد الأفق أمام الأجير إلى هذا الحد وإلى ما بعده ؛ هو العدل ، وهو سنة العمران المنتج ؛ وسبيل الترقى وتطور أحوال الناس .

وقد طبق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام تلك القاعدة على أنفسهم وخدمهم ورقيقهم أدق تطبيق وأوفاه . فهذا أبو ذر رضى الله عنه ما كان يشترى لنفسه ثوباً إلا ويشترى مثله لخادمه أو رقيقه ، من نفس النوع واللون وبنفس السعر حتى لا يقع فى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت قصة طريفة تتضمن واقعة لأبى اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على تحريهم لمواقع مرضاة الله وائتمارهم بأمر نبيه . وهى واقعة خاصة بتيسير الدائن على مدينه إذا كان معسراً . وقد أوردها الإمام ابن كثير فى تفسيره عند قوله تعالى :

« وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » والذى يلفت النظر فى هذه القصة وهو محل شاهدنا — لا محل العبرة فى القصة نفسها — أن الوليد قال : فخرجنا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له . . وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى . . وعلى غلامه بردة ومعافرى . . . الخ » . وتاريخ الحقبة النبوية الزاهرة وماتلاها حافل بالكثير من أمثال هذا.

وقد كنا قسمنا الأجراء الذين ينقطعون للعمل عند شخص معين أو شركة أو نحوها إلى فريقين : فريق يقيم مع صاحب العمل فى بيت واحد . وآخر يستقل بمنزل خاص . . أما الفريق الأول فقد ذكرنا حكمه فى تقدير أجره ؛ وأما الفريق الآخر فله نفس هذه الكفاية التى قررها الحديث الشريف للفريق الأول .

نعم له كفايته من :

١ — الطعام والكسوة . أى الأجر الذى يكفل الوفاء بكافة مطالب الطعام واللباس .

٢ — وليس هذا فحسب ، بل لا بد أن يراعى فى الأجر ، أن يتسع لقيمة المسكن .. فإن الرسول عليه السلام سكت عن المسكن فى حديثه الشريف لأنه كان يتكلم عن أجير قد كفى مؤنة المسكن بإقامته مع صاحب العمل فى بيت واحد .. أما هنا فلسنا نعتسف أبداً حين نقرر على ضوء الإسلام وجوب الاتساع فى تقدير أجر العامل بحيث يشمل قيمة المسكن .

ولا يجوز أن تقل قيمة الأجر عن هذا ، فهو الحد الأدنى الذى لا يجوز تجاوزه إلى ما دونه ، وإلا عد استعباداً بالباطل وحكما بتجويع نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .

أما الحد الأعلى فقد سكت عنه .

وأساس تقدير الحـــد الأدنى للأجور هو مراعاة مستوى المعيشة فى البيئة . . . وذلك مأخوذ من قوله عليه السلام « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه ما يلبس » . . .

والبيئة بالنسبة للأجير الذى يساكن رب المال هى البيت نفسه الذى يضم الإثنين . . . . ولما كان مستوى معيشة البيوت يتفاوت فى بعضها عن بعض ، فى القرية الواحدة أو المدينة الواحدة ، فإن أجراء هذه البيوت سيتفاوتون طبعا فى مستويات المعيشة تبعا لمستوى البيت الذى يعيش فيه كل منهم . . . وليس لصاحب بيت من البيوت أن يهبط بمعيشة الأجير عنده إلى مستوى بيت آخر أو إلى مستوى أجير فى بيت آخر ، فإن بيئة كل أجير هى البيت الذى يعيش فيه مع صاحب المال ، ولا يجوز على — ما قرره الحديث الشريف — أن يكون له طعام دون طعام سائر أفراد هذا البيت ، أو كسوة دون كسوتهم فإنه منهم ، وهم منه ، بحكم الأخوة التى أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ومن أقوال العلماء « أنه يصح أجارة العامل والمرضعة بطعامهما وكسوتهما ،

وعند التنازع فى صفة الطعام والكسوة يكون لها الحق فى طعام وكسوة مثل طعام الزوجة وكسوتها» .. فإذا كان الأجير لا يساكن صاحب البيت ، فإن الحكم لا يتغير ، أى أن أجره يتحدد أدناه بمراعاة مستوى المعيشة فى البيئة . . . . ولكن الذى يتغير هنا هو حدود البيئة ومعناها ، فليست البيئة هنا هى بيت صاحب المال ، وليس أفرادها هم أسرته ، وإنما هى الفئة التى تحترف مثل حرفته ، وأفرادها هم أترابه الذين تنتظمهم وإياه حالة عقلية ونفسية واحدة .. فلا يجوز أن يقل الحد الأدنى لأجره عن القدر الذى يفى بنفقات (١) المسكن (٢) والملبس (٣) والمطعم فى المستوى المقرر عرفا لأهل مهنته . . . فإذا نزل عن ذلك ، فهو استغلال لاحتياج العامل وارغام له بقهو الضرورة على أن يقبل وضعا غير وضعه ، وشيئا أقل من حقه . . فإذا شكا العامل أو تذمر ، فليس هو الذى يثور على الأوضاع ، ويحض على كراهية الطبقات ، وإنما الذى ثار على العرف ، وغير الأوضاع المتميزة بطبيعتها فى البيئة ، هو ذلك المستغل الذى أذ ق القلوب مالم تذقه ، وأرغم النفوس على أن تغير ما ألفته . . . فإن تغيير مستوى المعيشة لا يتم « أتوماتيكيا » كما يتم أى عملى آلى ، وإنما لابد فيه من معاناة نفسية وعقلية ، وتحول عاطفى مرير . .

ومهما يكن من شىء فإنه لا يحل لأحد أن يستغل ضرورة العامل وحاجته إلى القوت ليضطره إلى قبول ما يهبط به عن مستوى أهل مهنته ، فانه عبث بما شرع الله ورسوله .

هذا ومستوى فئات العمال فى المدينة ، غير مستوى معيشتهم فى القرية ، فلا يجوز أن يستغل هذا التفاوت للعبث بالحقوق المقررة شرعا وعرفا .

ونكرر هنا ما قلناه : أن ذلك كله يدور حول الحد الأدنى الذى لايجوز أن يهبط الأجر إلى مادونه ، أما الحد الأعلى ، فقد تركه المشرع لعوامل العرض والطلب الطبيعية ، وتقدير قيمة الإنتاج تقديراً عادلا خالياً من كل المؤثرات الظالمة .

وبعد فهل عرفنا تقدير الحد الأدنى للأجر ؟

لقد قرر له الإسلام ، أن لا يقل عما يكفى نفقة : المسكن . . والمطعم . . والملبس ، فهل انتهى به الإسلام إلى هذا الحد فحسب ؟

أن ديناً يقول عنه منزله سبحانه : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » إن ديناً يصفه منزله بأنه النعمة التامة على عباده ، جدير أن لايقف بالأجر الأدنى عند هذا الحد ، وإلا فكيف يتزوج ؟ ومن أين يتزوج ؟

نعم يا أخى ، لقد قرر الإسلام حقاً لغير المتزوج أن يتزوج ، مادام أجره فى حدود كفايته من المسكن والمطعم والملبس لايتسع لأن يتخذ لنفسه زوجا .

ولسنا نعتمد فى تقرير ذلك على ما كان بين موسى وشعيب

عليهما الصلاة والسلام فحسب ، بل قد روى أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادما ، فإن لم يكن له مسكن فليتخذ مسكناً » . . وذلك أمر فطرى بدهى محض ، فالزواج حاجة كل إنسان لا غنى له عنها .

حقاً إن الرسول يتكلم فى هذا الحديث عن حقوق مستخدمى الدولة ... ولكن أتظن أنه عليه السلام يرمى إلى تخصيص موظفى الحكومة بامتياز ما دون سواهم من العمال ؟ ... أتظن ذلك دار بذهنه أو طاف بخاطره حين قرر هذا الكلام ؟ . . . أنه رسول الجميع ، ورحمة الله للناس كافة ، وهو الراعى المسئول عن أتباعه جميعاً ... وحين يقرر هذه الحقوق ، إنما يقرر احتياجات أولية يستوى فى الحاجة إليها كل أجير لدى الحكومة أو لدى الأفراد والشركات ؛ ولا شك أن ما تلتزم به الحكومة الإسلامية ممثلة فى سيد المشرعين — لعالها — إنما هو التزام يسرى حكمه قطعاً على كل أجير انقطع للعمل ، عند فرد أو شركة أو جماعة ، بحكم المماثلة بين ظروفه وظروف من انقطع لخدمة الحكومة ... وهذا السريان يسوغه كما قلنا أن الرسول رسول الجميع ، وأنه لا يشرع بهذا الكلام إمتيازات ، وإنما احتياجات فطرية أولية لاغنى عنها ... أو على الأقل هو حكم القياس الذى تتسع به دائرة الحكم حتى

تشمل الشيء ونظيره ، وتظل برحمته جميع النظراء المتماثلين فى ظروف واحدة ، وحالات واحدة .

ولعل ذهن القارىء التفت فى الحديث الشريف إلى ضرورة اتخاذ الخادم ، .. أى أن الدولة ملزمة أن تجعل أجرة الموظف عندها بحيث تتسع — فيما عدا المطعم والملبس — للمسكن ، ونفقات اتخاذ زوجة ، وأجرة الخادم .. وهى توسعة عجيبة ، لانرى لها مثيلا فيما يدعو إليه بعضهم من مذاهب العدالة الاجتماعية .

وهذا الحديث عن أبى داود جاء مثله عن الإمام أحمد بن حنبل ، بسند آخر ، وسياق آخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ولى لنا عملا (١) ، وليس له منزل فليتخذ منزلا (٢) أو ليست له زوجة ، فليتزوج .. (٣) أو ليس له خادم فليتخذ خادما .. (٤) أو ليس له دابة فليتخذ دابة . . . »

فهذان الإمامان الجليلان يرويان لنا بأكثر من سند واحد عن رسول الله ، ما يجعل الناس — لشدة ما نزل بهم من التضييق والتقتير — فى دهش من سماحة الإسلام وعدالته السابغة .

إننى أشعر أن هذه الأحاديث الشريفة تغنينى عن دعوة جماهير الموظفين والعمال إلى الإسلام ، فإنها قد تولت الدعوة إليه بما لا مجال معه لقائل . . . وأخيراً فلعلك التفت إلى قوله عليه السلام « أو ليس له دابة فليتخذ دابة » ، فهو تقرير قاعدة التزام الدولة

بنفقات انتقال موظفيها ، متى كانت المسافة من المسكن إلى مقر العمل موجبة لذلك . . .

على أننى أرى نص الحديث مطلقا غير مقيد ، فاتخاذ الدابة واستخدامها غير مشروط فى الحديث الشريف بشرط البعد أو القرب ، فكأن المشرع الحكيم رأى إن الأجير الذى فرغ نفسه للحكومة ، وقدر له نفقات الحد الأدنى لمستوى المعيشة ، لا يستطيع أن يدبر نفقات انتقاله لزياراته الخاصة أو قضاء مصالحه ، فيسر له ذلك بتقرير الدابة ، أو بدل الركوب والانتقال !!

ونكرر ماذكرناه سابقا أن هذه الأحكام إنما تتعلق بتقرير الحد الأدنى للعامل . . . وأن موظفى غير الحكومة فيها كموظفى الحكومة سواء .

ونحب أن ننبه إلى أن تقدير هذا الأجر الأدنى مراعى فيه كفاية فرد واحد هو العامل الذى يعمل فقط .. فإذا تقدم لشركة أربعة عمال — مثلا — أحدهم عزب والثانى متزوج ، والثالث له ولدان ، والرابع له خمسة أولاد ، واتفقت معهم على الحد الأدنى ، فإن هذا الحد يتقرر بقدر واحد بالنسبة للجميع ، دون مراعاة لما على ذوى الأعباء من أعباء ، والحكومة هى المكلفة شرعا بنفقات من قصر الحد الأدنى عن كفالتهم على ماسيأتى إن شاء الله فى رسالة التكافل الاجتماعى . . . . أما إذا حصل الاتفاق على أجور مغنية ، فقد كفيت الدولة دفع الذهب والفضة .

وبعد فأين نحن الآن ؟ لقد أوردنا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قرر فيه قاعدة الأخاء بين الخادم والمخدوم بقوله : « إخوانكم خولكم ، خدمكم » . . وقاعدة الأجور التى قرر فيها عليه السلام مراعاة مستوى البيئة بقوله : « فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس » . . . وبقى :

المبدأ الثالث ، وهو خاص بتقرير مراعاة التيسير فى العمل على العامل ، وعدم إرهاقه بما فوق الطاقة وذلك هو قوله عليه السلام : « ولا يكلفه من العمل مالا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

وذلك هو منطق العدالة وحكم الإنصاف . . والإسلام بتقرير هذا المبدأ ، لا يستجدى صاحب العمل أن يرحم العامل ، ولا يسأله الشفقة به ، فالرحمة ما برحت مبدأ تطوع المرء بما لا يلزمه به العدل ، بل إن حقه الطبعى — بوصفه كائناً حياً — ألا يحمل من العمل إلا وسعه وطاقته ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، فليس الإنسان متاعاً أو آلة تدار بغير حساب ، فإذا وجد من الآدميين الغلاظ من تسول له أطماعه القذرة أن يسخر الناس بقرشه تسخير الآلة التى لاتحس ، ويستغل حاجتهم إلى القوت فى إذلالهم واستقطار طاقة الحياة من أبدانهم فهو اللص الذى يجب أن تقطع يده ، بل هو السفاك الذى يقتل الناس ببطء ، ويسفك دماءهم قطرة قطرة ، لا دفعة واحدة . . فليس الأمر أمر رحمة

وإنما تقرير حق طبعى ، ومبدأ عادل ، وهو المبدأ الذى ينادى به العمال الآن فى كل مكان ، ويتلخص فى العرف الحديث فى «تحديد ساعات العمل» .

ويزيد الإسلام على ذلك مبدأ طريفاً : أنه لايجيز هذه الأعمال المرهقة ، إلا بشرط تعاون صاحب العمل مع عامله عليها : «فإذا كلفتموهم فأعينوهم» فإذا لم يفعل فلاشىء على العامل ، ولعله كذلك أراد أن يذيق صاحب العمل ما يلقاه العامل من مشقة وجهد ، فيتقى الله فيه ، ويوفر له من الوقت مايرفه به عن نفسه .

ولك أن ترى فى هذه الإعانة «فأعينوهم» أنها إعانة بالمكافأة والتشجيع ، والجزاء الذى تطيب به النفس ؛ وهو جزاء يجب أن يكون تقديره منفصلا عما يتقاضاه العامل عن عمله العادى ، وهو سنة طيبة معمول بها فى بعض دوائر الأعمال ، إذ يأخذ العمال أجوراً إضافية على ما يؤدونه خارج أوقات العمل المقررة .

هذا ما وسعنا أن نستخرجه من هذا الحديث الشريف والله نسأل أن يوفق الجميع إلى العمل به والانتفاع بما قررته الشريعة السمحة .

آفات العمل

العمل هو الوسيلة الطبيعية الأولى لكسب الرزق ، والأجر ، وحيازة ثروات هذه الأرض .

وليس هناك من عمل بلا ثمر ، أو بلا أجر ، وتلك سنة الحياة ، وطبيعة العمران ، وسبيل رضا الناس وطمأنينتهم وإقبالهم على شأنهم .

فإذا تدخلت عوامل الظلم والبغى لحرمان أحد ثمرة عمله ، أو أجر عمله ، فتلك هى الآفة التى تفسد دولاب العمل ؛ وتعارض سنة الحياة . . وهل دولاب العمل إلا العامل ؟

إنها تسطو على همته فتوهنها فيغدو هيكلا مفرغا من عوامل الحفز والانبعاث .

وتسطو على نفسه فتورثها أول الأمر لهبا من غيظ ، وشواظا من نار . . فإذا أعياه أن يجد النصفة ، انطوى على الحقد والضغينة والنقمة . . . فإذا امتد به الأمد ، وزادت عوامل الجور عتوا وسلطانا فقد الرجاء فى النصفة والعدالة ومد عنق الذل للواقع البغيض ، يهضم بالاستسلام شيئاً من لهب جوانحه ... ولا نعرض لذكر ما يلقاه العامل حينئذ من ضيق العيش وسوء التغذية والتعرض للمرض والعرى وسائر آفات الحرمان ... !

خصومة الإسلام لمن يستبدون بالعامل :

ذلك هو ما نعنيه بآفة العمل، ولذا جاء الإسلام يقول : « اعطو الأجير حقه قبل أن يجف عرقه » فكان بعض الصحابة يذهب به الورع إلى التطبيق الحرفى لمنطوق الحديث الشريف فيرجو الأجير ألا يبادر بمسح عرقه حتى يؤدى إليه أجره .

وكان عليه السلام يعلم أثر تلك الآفة فى العمران والمجتمع ونفس الأجير ... وكان يعلم كذلك أن فى بعض الناس ضمائر ميتة تسول لهم أن يستحلوا أجر هذا الضعيف المسكين كله أو بعضه فأعلن عليهم خصومة عنيفة تفلق الصخر وتزلزل الجبال ؛ فقال عليه السلام : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : « (١) رجل أعطى بى ثم غدر ... (٢) ورجل باع حرا وأكل ثمنه ... ٣ — ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره » .

استعباد الأحرار :

والرجل الثالث فى هذا الحديث هو موضع الشاهد ، فما خبر ذلك الذى باع حرا وأكل ثمنه ؟

كان من عادات صعاليك العرب وشذاذهم أن يخطفوا الأحرار صغارا أو كبارا ثم يبيعونهم ويستحلون ثمنهم ، ولكن الفقهاء رأوا أن الوقوف عند هذا الحد فى فهم الحديث يضيق دائرته الواسعة فإذا كان الاستعباد أن يشترى المرء رجلا حرا كان أو عبدا ، فلب

الاستعباد أن تضع يدك القاهرة على إنسان فتستغله وتسخره فى حاجتك بدون أجر . ولقد كان فرعون يعبد بنى إسرائيل لبأسه الشديد فيسخرهم فى حاجته تسخير العبيد دون أن يدفع لهم أى أجر علاوة على ماكان ينزل بهم من التنكيل يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فهل كان فرعون اشترى هؤلاء بماله ؟ لقد سمى القرآن ذلك استعبادا فيما دار بين موسى وفرعون من حوار إذ قال له : وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

ولقد قلنا فى أول مبحث تقرير الأجور : إنه لايوجد عامل لا أجر له على عمله إلا العبد فإن المفروض أنه فى كفالة سيده ، وما اشتراه سيده بماله إلا ليسعى له فيما يريد من عمل ؛ وقد توسع العلماء فاعتبروا كل حالة تؤل بصاحبها إلى أن يعمل ويستولى غيره على ثمرة عمله دون أن يعطيه أجره استعبادا . . .

واعتبروا من قهر إنسانا حتى سامه هوان هذا المصير داخلا فى حكم قوله عليه السلام « ورجل باع حرا وأكل ثمنه » قال الخطابى « من اعتباد الحر أن تستخدمه كرها » . . . بل إن الإمام الشوكانى يذهب إلى الحكم على من يتعبد الأحرار باستخدامهم كرها بأن عليه وزر من باع حرا وأكل ثمنه ووزر من استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجره إذ قال فى تفسير قوله عليه السلام « ولم يوفه أجره » : « هو فى معنى من باع حرا وأكل

عنه ؛ لأنه استوفى منفعته بغير عوض فكأنه أكلها . . . . ولأنه استخدمه بغير أجرة فكأنه استعبده » .

هذه هى ثورة الإسلام على مستعبدى الناس بغير حق وآكلى أجورهم بالباطل وهى ثورة تحمل فى أحد وجهيها روح العطف والغيرة على العامل والحساسية الشديدة بسوء ما يقع عليه من ظلم ؛ وتحمل فى وجهها الآخر تلك الخصومة العنيفة التى يعلنها الرسول عليه السلام فى وجوه أولئك الخاسرين ؛ قال ابن الجوزى : « الحر عبد الله .. فمن جنى عليه فخصمه سيده » .

عمر يضع قدمه على خدود الظلمة :

وقد تقول : ما قيمة هذه الخصومة إذا كان موعدها يوم القيامة ؟ . وما أثرها فى الدنيا إذا كان من يستمع لها بليد الإحساس خسيس الطبع ؟

والجواب ماجرى عليه عمر وجعله سنة متبعة قولا وعملا : ولست أدع أحدا يظلم أحدا أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يذعن للحق » .

وكلنا يعرف نبأ ذلك الرأسمالى الوقح الذى جاء يشكو عماله إلى عمر لأنهم سرقوا بعض ماله فلما علم أمير المؤمنين أنهم فعلوا ذلك لأنهم لا يستوفون كفايتهم من الأجور صاح فى وجهه « أيها اللص إذا عاد هؤلاء إلى السرقة قطعت يدك أنت » .

فاستخلاص الأجور — إذا — ليس موكولا إلى ضمائر هؤلاء الموتى فقط ، ولا مؤجلا إلى المحاكمة الكبرى يوم القيامة فحسب ، بل منوطا قبل ذلك بعدالة الحاكم الذى يرى الحق فى الدولة هو كل شىء : « إلا أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه » .

الفقر... من نصيب العمل — والثروة ... من نصيب البطالة :

ولكن من الأوضاع المعكوسة عندنا أن أهل العمل الذين يدور بسواعدهم دولاب الحياة الاقتصادية فقراء مضطهدون ... وأهل الكسل الذين لا يستفيد منهم المجتمع غير الخمر والقمار والرقص والغطرسة على عباد الله أغنياء ولا يضطهدهم أحد ، بل هم الذين يضطهدون غيرهم ... والمعروف أن الثروة بنت العمل وأكثر الناس عملا أكثرهم ثروة ، ومن لا عمل له فلا نصيب له من شىء .. وهذا هو المنطق السليم وهو الوضع الصحيح للحياة المنتجة والله سبحانه يقول (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) فالمشى والسعى مقدمة للرزق والأكل ... ومن جد وجد ومن سعى ومشى أكل ومن لم يمش فكيف يأكل ، ومن أين يأكل ؟ فإذا رأيت بعد هذا عاملا يعمل ثم هو لا يجد ما يأكله فأنت بإزاء حالة شاذة ، وإذا وجدت رجلا لا يمنح الحياة من نفسه عملا ما ثم هو مع ذلك يحوز الثروات ، سرت الشكوك فى نفسك وتساءل عقلك من أين له هذا ؟

فنحن إذا بإزاء حالة خطيرة صارخة ، لايستقر عليها أمن ولا يزدهر بها عمران . فهناك مظلوم غصب حقه ، وهناك ظالم أخذ ماليس له بحق .. ولو أن الظلم يقع على المظلوم مرة واحدة لكان من اليسير علاج عواقبه السيئة ، ولكن الظلم هنا سنة متبعة وأسلوب رتيب يتكرر كل يوم فكلما جد المسكين واجتهد امتدت الأيدى الآثمة واستولت على ثمار عمله كأنما جريمته أنه يعمل .. فإذا تساءلت كيف تم هذا ؟ قيل لك العلم عند ذوى الجاه والنفوذ الذين تسترت وراءهم شركات الاستغلال والاحتكار ، والعلم كذلك عند كبار الملاك والمزارعين الذين تستروا خلف عقود الإيجار البيضاء أو السوداء .

فالأولون يسخرون نفوذهم لإذلال العامل وكتم أنفاسه كلما طالب بتحسين حاله ، وإنك لترى البوليس يطارد جماعات العمال أو يحاصر أنديتهم كأنهم ممن يدبرون الجرائم أو يتآمرون على أمن الدولة ولو أنصف المسئولون لأنصفوا هؤلاء المساكين بل لقبضوا على من غصبوهم حقهم وزجوا بهم فى أعماق السجون .

أما كبار المزارعين فهم يجمعون المستأجرين فى مبدأ كل عام ويعرضون على كل منهم عقد إيجار أبيض فيختمه بخاتمه أو يبصم بأصبعه أو يمضيه بخطه الضعيف المرتبك ، ثم ينصرف إلى حقله فيجد ويجتهد ويسهر بالليل ويعمل بالنهار ، لا برد يمنعه ولا مطر يقعده ولا حر يثنيه عن غايته فإذا جاء آخر العام وجد نفسه قد

تعهد فى عقد الإيجار الأسود بما لم ينزل الله به من سلطان ووجد نفسه عاجزاً عن سداد التعهدات التى وضعها السيد المالك من تلقاء نفسه على حسب مايرضى مطامعه وشهواته وإذا بالخفراء يحجزون المحصول ولا يستولى المسكين منه إلا على مادون الكفاف كأنما كان يضرب بفأسه فى صخر ، أو يضع بذوره فى رمل ، بل إنه لو كان كذلك لرق له الصخر وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ... فإذا جاز السكوت على هذا الظلم الفادح الصارخ أتظن ياأخى العمران يزدهر والاقتصاد ينتعش بمثل هذا ؟ إن الله لم يخلق الأرض ليجعل من أهلها قطاع طريق وإنما أرادهم عمارا لها (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها) فكل ما خالف أصول العمران إنما هو معارضة لأمر الله ومحاربة لسنن الصلاح والإصلاح ومن صبر على ذلك باختياره فهو كالمشارك فيه ومن جاهد لإزالته بالتى هى أحسن فهو من خير المجاهدين فى سبيل الله وذلك إن شاء الله من أخص أهدافنا التى نحاول إدراكها .

وسبيلنا إلى ذلك هو سبيل كل إصلاح مشروع فالصخب والعربدة ليسا من قوانين العقل ، وإثارة المشاعر وتحريك الجماهير إلى الهياج جريمة يجنيها السفهاء على الظالم والمظلوم جميعا ، فالظالم والمظلوم فى حاجة إلى العلاج النافع والدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، ولا نفع إلا أن نسمى الأشياء بمسمياتها ونبرز الواقع

عاريا من كل طلاء يستر عيبه أو غطاء يموه على الناس حقيقته وكفى بذلك تنبيها للحكومة . . . وردعا للذين لا يشبعون من السحت . . . وأنارة لاذهان الناس بالوعى الذى يطلب حقه ولا يعتدى على احد

شركاتنا .. أو أسواق النخاسة :

فهذه أكثر الشركات التى تعمل فى بلادنا — وطنية أو أجنبية — تعتمد فى « خاماتها » أى مواد انتاجها الأولية ، على ما تغله الأرض من حاصلات زراعية أو حيوانية أو معدنية . . أى أنها تشترى « خاماتها » غالبا من الأسواق المحلية بأرخص الأثمان .

ومما لا جدال فيه أن الأيدى العاملة فى مصر أرخص منها فى أوربا أو على الأقل فى بلاد كانجلترة وفرنسا ونحوهما .

ومما لا جدال فيه كذلك أن ماتدفعه هذه الشركات للحكومة من ضرائب أقل كثيرا مما تدفعه الشركات فى أوربا .

وكان المنطق يقضى بناء على ذلك كله أن تكون أسعار منتجاتها أقل بكثير جدا من أسعار مايرد إلينا من الخارج .

وإنه ليأخذك العجب حين تقارن بين سعر متر « البفتة » المحلية و « البفتة الانجليزية » مثلا فتجد السعرين متساويين أو متقاربين تقاربا يكاد يمحو الفرق بينهما .

فالشركة الانجليزية التى اشترت القطن من أسواق مصر

وأنفقت عليه رسوما للجارك فى التصدير وأجورا للنقل فى البحر ، ثم انفقت عليه مثل ذلك فى إعادته إلينا مصنوعا بعد أن دفعت من الضرائب فى بلادها مادفعت وأنفقت فى أجور العمال الباهظة ما أنفقت تبيع لنا إنتاجها بسعر يماثل أو يزيد قليلا جدا عما صنع محليا بأقل التكاليف . . . فهل لذلك من تفسير ؟ . . وهل يعقل أن يباع إنتاج العامل الذى يتقاضى أجراً يوميا ، يتراوح بين ١٥ قرشا ، ٤٠ قرشا أو ٥٠ بثمن يماثل أو يقارب إنتاج الذى يتقاضى يوميا جنيهين أو ثلاثة ؟

نقول هذا لنشير إلى الأرباح الهائلة الضخمة التى تعود على أصحاب رءوس الأموال فى هذه الشركات ، ونبين أنه لاعذر لهم فى موقف الشح والتعنت الذى يواجهون به العمال كلما طالبوا بأجر ينفس عن صدورهم شيئا من إثقال المعيشة المرهقة .

ولسنا بصدد الكلام عن تصوير عيشة الهوان والحرمان والضنك التى يحياها العامل هو وأسرته بمرتبه الضئيل الهزيل .

ولكننا نريد أن نذكر أن هذه الشركات لا تكتفى بموقف الشح والكزازه الحقيرة ، بل تذهب إلى تحصين نفسها أو تحصين كزارتها وشحها بمختلف الوسائل ضد مطالب العمال . . . بل إنها تذهب إلى ما هو أكثر من ذلك ، إلى تطريق العمال أنفسهم بأساليب بلغت الغاية فى القسوة وخسة النفس ولؤم الطبع .

فهى تقيم من هؤلاء المساكين جواسيس وعيونا على سائر إخوانهم ينقلون إليها ما يدور من همس وما يجهر به من شكوى والويل لمن يعرف أنه زعيم أوانه أشد جهرا بما يعتلج فى صدره من ألم إن مصيره لن يكون أقل من الفصل والطرد ، وهو مصير مستساغ إذا قورن بمصير من لفقت لهم التهم وزج بهم فى أعماق السجون :

إن ما يجرى داخل أسوار هذه الشركات الضخمة من أساليب الاذلال لشىء تقشعر منه الأبدان فأنصاف الآلهة هناك لا تعرف لغاديدهم غير الانتفاخ ، وأنوفهم غير الغطرسة ، وعيونهم غير النظر الشزر ، ووجوههم غير التجهم ، وأفواههم غير قلة الادب وألفاظ السفلة ، وقلوبهم غير التحجر وبشاعة القسوة ... وعلى العامل إذا أراد أن يعيش أن يسكن ويذل ويصبر على ما يرى ويسمع وأن يرضى بعبادة ذلك الصنف البغيض من حثالة البشر ... فاذا لم يرض بهذا الجو المكتوم المظلوم فان إشارة واحدة من أصبع أحد الآلهة تلقيه كما يلقى المتاع الخلق فى الشارع حيث جحيم الحرمان والضيعة أذل وأنكى :

ولقد حدثت عن زبانية شداد غلاظ يختارهم الآلهة للحراسة وما اختاروهم إلا ليكونوا سدنة لمحاريب الظلم والعبادة الباطلة ... وإن السادن من هؤلاء ليمشى مزودا بعصا غليظة أو كرباج مفزع مدلا ببأسه كأنما يتحدى الغادى والرائح من العمال المساكين ؟؟ فهل

فهل تظن فى هؤلاء المساكين من تحدثه نفسه بقبول هذا التحدى . . هل تظن أن فيهم ذلك المجنون الذى يلقى بالبقية الباقية من جسمه الضامر الطاوى بين أيدى هؤلاء الجلادين الشرسين الغلاظ ؟ .

وفى كثير من هذه الشركات أقسام كيمائية ينبعث منها أبخرة ، وغازات ، وذرات ، تنفذ إلى رئة العامل ؛ وشركات العالم كله ، العالم المتحضر ، تبادر بمواجهة هذه الحالة بتقديم غذاء خاص يصفه أطباؤها ، فيقاوم مكروب السل أو أى مكروب يتكون فى داخل الرئة . وهذا الغذاء يقدم على نفقة الشركة ، كما يقدم الزيت للآلة . . ولكن شركاتنا العتيدة — حيث القلوب قدت من صخر — لا تلقى بالا لهذا المعنى الإنسانى ، وتترك المسكين بلا حصانة ، يمشى وئيداً إلى الداء المحتوم ، باكراه اللقمة ، وضغط الرغيف ، حتى إذا تمكنت منه العلة ، وجد نفسه ملقى به فى الشارع

ومن الفجور ما حدثنى به بعضهم من أن الشركة التى يعمل بها ، دعت كثيرا من الجرائد والمجلات أن توفد مندوبين عنها قال وحدد للزيارة موعد ، ولم يكن للشركة من هم قبل حلول الموعد إلا تدريب العمال على الرياء والنفاق وتمثيل مظاهر الرحمة التى يعاملون بها ... أعدت الشركة أو اصطنعت موائد ذات أطباق وملاعق وأشواك وأكواب ... وأخذت تدربهم على

الجلوس إلى المائدة وكيفية مسك السكين والشوكة ... وأعدت عنبرا به عدة أسرة واختارت فريقا منهم لتمثيل دور المرضى ... فهذا ثنيت ذراعه وربطت مشدودة إلى عنقه ، وذاك لفت حول رأسه ووجهه الضمادات واللفائف ... أما هذا الثالث ففى دور النقاهة يستمتع بالغذاء الدسم والفاكهة المتخيرة . أما هذا الرابع فله شأن آخر وهكذا ... قال المسكين وخرجت الصحف والمجلات عقب يوم الزيارة حافلة بأنباء البر وتفاصيل النعيم الذى نسبح فيه وتمجيد المعاملة التى نلقاها ، وزينت صدورها وكثيراً من صفحاتها بصور الموائد والأطباق الحافلة باللحم والخضر والأرز والفاكهة والعمال مقبلون عليها بشغف ونهم ، وظهرت صور لضمائد ليس تحتها جروح ، ولمرضى ليس بهم من أثر لمرض ... وهذا نوع من التطويق يسد الباب فى وجوههم إذا شكوا للصحافة أو الجمهور أو الحكومة .

وتصدر الحكومة القانون عقب القانون لمصلحة العمال ولكن لشركاتنا المجيدة بأزاء كل قانون آفة تبطل أثره وتخرج تخرج به من تبعاته ... فاذا كان مضى المدة يكسب العامل امتيازاً ما قبل الشركة ، فماذا يلجئها هى إلى إبقائه حتى يبلغ هذا الأجل ؟ ولماذا لا تنتحل الأعذار لطرده والاستغناء عنه . . ؟

إنها لا تبقى إلا القليل من هؤلاء القدامى ، على أن يكونوا

ممن برهنوا طول خدمتهم ، أنهم خرس لا يتكلمون ، وصم لا يسمعون ، وعمى لا يبصرون ، وموتى لا يحسون . . أما أولئك الآخرون . . فيعرفون مصيرهم مقدماً ! !

وهكذا تروض الشركة عمالها على الصمت والعمى ، أى على الذل الذى يهدر الإنسانية ، ويجعل صاحبه شيئاً لا همة به كالثوب الخلق .

ومما تعبث به بعض الشركات ، أنها تظهر فى لبوس الرحمة ومسوح الورع ، وتقبل شفاعة الشافعين فى بعض المطرودين بعد أن يكونوا قضوا شهوراً فى أكناف الفاقة والجوع والتضور . . ولكن على أنهم عمال مستجدون لا سابقة لهم بالشركة ولا حق لهم فى امتياز ما ، ويعينها على ذلك أن هناك فاصلا زمنياً يفصل بين مدتى الخدمة ، وذلك من أحط أساليب القسوة ، وأخس طباع اللؤم .

وإذا صدر قانون النقابات ، فأهلا به ومرحباً ، وهل تضيق به الشركة العتيدة ، بعد أن أصبح عمالها فى يدها ألين من العجين الرخو ؟

. . ولقد حدثت وما أكثر ما حدثت — أن الشركة هى التى تتفضل على العمال باختيار ممثليهم ، أى باختيار أعضاء مجلس الإدارة الذى سيرعى حقوق النقابة ويكافح من دونها . . يكافح من ؟ . . يكافح الشركة . . نعم تختار الشركة أعضاء مجلس النقابة الذى

سيتولى مكافحتها ، وتصدر الأوامر بوجوب نجاح هؤلاء المرشحين ويحضر مندوبون من قبل الشركة ، لا حق لهم فى مشاهدة عملية الانتخاب ، ولكن من يجرؤ أن يحاسبهم أو يخرجهم ، وهم ما حضروا إلا ليحاسبوا الذين لا ينتخبون مرشحى الإدارة ، أو لا يصوتون جهرة على مسمع منهم

ولعل مما أملى لهذه الشركات فى إذلال العمال ، ومكن لها من رقابهم أن فى مجالس إداراتها أعضاء لا كفاية لهم ، ولا دراية بفن من الفنون التى تقوم عليها الشركات

أعضاء فى مجلس الإدارة ولكنهم لا يحضرون ، فإذا حضروا لا يتكلمون ، فإذا تكلموا فبشىء سخيف مضحك مخز إذا لم يصلح لطرد صاحبه ، فلن يصلح بحال من الأحوال لأن يأخذ عليه قرشاً واحداً . . ولكنه مع ذلك يتقاضى عنه ألوف الجنيهات . ! !

إنه صهر رئيس الوزراء ، أو قريبه ، أو صديق الوزير أو تابعه الأمين . . أو هو موصول الأسباب بواحد من أرباب الجاه والنفوذ والسلطان

ومن الظواهر التى لها معناها أن الشركة لا تستكشف عبقرية هؤلاء العباقرة إلا على أثر بزوغ نجمه فى عالم السياسة والإدارة والجاه المرموق ، ولقد أحصى بعضهم منذ سنين لرئيس وزارة سابق ما يزيد على ثلاثين شركة أو خمسين متشرفة كلها بعضويته . . وتتساءل أنت ٥٠ شركة ؟ أيمكن أن يحضر جميع جلساتها ، ويدرس

المشاكل التى يعرض لها المجلس بالبحث ؟ . . وهذه المجالس لا تعقد جلساتها للتسلية والترويح ، لا تعقدها إلا لدراسة عويص المسائل ، ومعقد المشاكل ، فهل فى عبقرية هذا الرئيس ما يتسع لهذه الدراسات ؟ وإذا كان ذلك — عادة — فوق الطاقة فهل هناك علاقة بين جاهه العريض وتهافت هذه الشركات عليه ؟

وإذا تركنا الإجابة عن ذلك لأحاديث الصحف والمجالس ، وما يتناقله الناس من همس أو جهر ، فهل لنا أن نسأل هل هناك علاقة بين حرص الشركات على هؤلاء النواطير ، وحاجتها إلى البوليس يراقب أندية العمال ، ويطارد جماعاتهم المتذمرة فى كل مكان ؟ ؟

إن العمال يدركون كل شىء . . يدركون كيف تؤكل حقوقهم وتحارب مطالبهم ، ويعلمون مهمة النواطير المستأجرة لدق عظامهم وكتم أنفاسهم . . والعمال اليوم غيرهم بالأمس ، وهم بالأمس غيرهم قبله ؛ ونحن فى عصر الوعى القائم على المطالبة بحقوق الإنسان ؛ وقد عرفوا من التطورات العالمية ، ما شحذ خيالهم ، وألهب وجدانهم ، وصاروا يعرفون بعد ساعات ما يحدث فى أقصى بلاد العالم من حركات انقلابية ؛ وليس من الحكمة أن لا نتطور فى علاقتنا بهم ، فان تجاهل هذا الوعى الجياش ، إذا أخر الانفجار يوماً أو يومين ، فلن يؤخره إلا إلى ريثما يكون مدمراً مجتاحاً ،

ويومئذ لا ينفع العلاج ولا يغنى الندم شيئاً . . إن العامل لا يطلب إلا حقه الطبعى فى الأجر المجزى ، فاذا لم نعطه هذا الحق رغبة منا فى إقامة موازين المعدلة ، فلنعطه إياه درءاً ليوم ننشد فيه المعدلة فلا نراها ! !

إننا لم نذكر فى هذه الكلمة إلا رءوس المسائل ، ولم نذكر كل ما نعرف من هذه الرءوس ؛ وحين نحاكم هذه الأوضاع إلى قاعدة استعباد الأحرار التى قررها أئمة الإسلام نجد شركاتنا الكبرى قد تحولت أسواقاً رهيبة للنخاسة يسام فيها الأحرار مالم يذقه العبيد فى عصور الرق . . وحين نحاكمها إلى منطق العصر ، نراها تحولت بهذا الكبت والإكراه إلى مستودعات خطيرة قابلة للاشتعال والانفجار فى أى وقت . . ومن الجريمة أن يدعى العمال فى هذه اللحظة إلى غير ضبط النفس واصطناع الروية والأناة ، وحسن التبصر فى العواقب ، فإن الرفق متى أحكم له التدبير وصل بصاحبه إلى ما لا يصل إليه غيره . . إننا ندعوهم إلى التجمع حول الإسلام ولقد بسطنا لهم من تعاليمه ما تهش له السرائر . . والإسلام دين الرفق والدعوة بالتى هى أحسن . يحب التجمع ويدعو إليه ، ويكره الفرقة ، ويعدها سبيل الخيبة والفشل . . التجمع القائم على وحدة القلوب ، ووحدة الغرض والهدف ، ووحدة الوسيلة ، ووحدة الإيمان . . .

وحين نعتبر إثارة مشاعر العمال على ما هم فيه جريمة ، لا نقصد إلا مصلحة الوطن ، وخير العمال أنفسهم قبل غيرهم ، فإن ثورة الجماعات لا عقل لها ، وإذا اندلعت فلن يكون وقودها إلا هؤلاء وذووهم قبل سواهم ، وتلك هى طبيعة الفتن التى أعلنها القرآن الكريم بقوله : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »

أما هؤلاء الخنازير التى تأكل السحت وتسمن على الحرام ، فإنا ندعوهم أن يتقوا الله فى أنفسهم ، لا فى أوطانهم ؛ فإن أنفسهم هى التى تهمهم قبل أى شىء بل دون أى شىء ؛ ولو كانوا يرقبون فى هذا الوطن إلا أو ذمة ، مارضوا لعزته أن يجرحوها ببعث أسواق النخاسة فيه كرة أخرى ، ولسمت بهم وطنيتهم أن يهدروا مثقال ذرة من آدمية أى عامل أو عزته وكرامته ، ولما سمحت نفس أحدهم أن ترى مواطناً له يمشى فى موكب العبيد خاشع الطرف ، منكس الرأس ، شاحب اللون ، ينوء من هموم نفسه وبنيه بما يثقل كاهل الجبال . . نعم ندعوهم أن يتقوا الله فى أنفسهم وأبنائهم ، وإن قليلا من التأمل وبعد النظر ، ليبصرهم بشناعة ما يصيرون إليه ، ويملك عليهم زمام عواطفهم الشرهة الجامحة ، ويجعل السيطرة للعقل وحده وهو قسطاس الحقوق ، وميزان المجتمع ، ونبراس المصلحة والعواقب الحميدة والله ولى التوفيق .

التفاتيش . أو أعشاش السبوعية :

الفقر . والجهل . والمرض : ثالوث بغيض رددته الأفواه ، وحفيت بتسطيره الأقلام ، وشقيت بسماعه الآذان ، وضجت إلى الله من رؤيته الأنظار ! . . فإنك إذا تركت ميدان الصناعة وشركاتها الضخمة ، ويممت وجهك شطر الميدان الزراعى ، ألفيته على حال إن لم يكن شراً من سابقه فلن يقل عنه بؤساً وبشاعة !

إنك حين تتجول فى « تفتيش » من « التفاتيش » الزراعية الكبرى .. « والتفتيش » إن لم تكن تعرف ، هو إقطاعية ذات مساحة كبرى من الأرض ، تنتثر فى رقعتها عدة قرى ، « وكفور » متباعدة ، لا يملك أهلها غالباً شيئاً من الأرض ، إذ كلها مملوكة لصاحب « التفتيش » . . والأهالى يولدون على هذه الرقعة ، ويعيشون فيها ويموتون جيلا بعد جيل ، فلا يعرفون من ألوان الحياة إلا ذلك اللون الرتيب الذى يرثه الخلف عن السلف : دورهم ليست ملكا لهم ورقابهم خاضعة للسيد المالك ، استغفر الله بل خاضعة « للناظر » المباشر ، ولمن تحت أمرته من الكتبة ، والمعاونين ، والحراس .. ولا يندر أن يرى أحدهم الناظر قد أمر بطرد فلان من داره أو من التفتيش بأسره ، فإذا بالدار خالية من صاحبها فى المساء إذا كان الأمر قد صدر فى الصباح ؛ أو خالية فى الصباح إذا كان الأمر قد صدر فى المساء . . .

لا يندر أن يرى المسكين ذلك ، ولا يندر أن يرى « عملية » الإخلاء والطرد كيف تتم ، إذ يأتى زبانية الحراس والخفراء فيهجمون على الدار فى قحة وقسوة ، فيرمون للضحية التعسة ما شاءوا من المتاع المهلهل ، ويقذفون بنسوته وبنيه إلى الخارج ، فإذا سمحوا له أن يأخذ بعض ماشيته ساقوا ذلك القطيع من الآدميين والماشية على حال من الهوان يفتت الأكباد . . إلى أين ؟ . . لا يعلم إلا الله . . فقد يكون هذا الشريد منحدراً من سلالة استوطنت هذا « التفتيش » منذ مائة سنة ، أو مائة وخمسين أو أكثر ، لم تعرف خلالها غيره إذ تعيش داخل نطاقه المحصور عيشة بدائية ، لا علم ، ولا حضارة ولا شىء مما يوجب الأسفار ، والرحلة ، والخروج لرؤية ما وراء عالم التفتيش ؛ . . فإذا طرد هذا القطيع ، فأنه يهيم على وجهه فى سذاجة لا يدرى إلى أين . . ولا متى يحط رحاله ؟ . . أقول لا يندر أن يرى أحد أبناء هذا التفتيش أو كلهم هذا المنظر المهين القاسى ، دون أن يروا نجدة من أحد تنصف هذا الطريد ، وترد عنه تلك العاقبة ، وتقيم الانسانية ولو بعض الاعتبار . . يرون ذلك فلا يكون له فى نفوسهم إلا الاقرار المطلق بسلطان الناظر ، وتوطين النفس على الاذعان الكامل لمشيئته وكلمته . . والملق المنكر الذليل لأتباعه وزبانيته . . وفى التفتيش عدة نظار ، يشرف كل منهم على زراعة قرية أو قريتين أو أكثر . . ويحكم هؤلاء النظار مفتش ، هو نائب

صاحب الأرض فى إدارتها ، ولذا تسمى الاقطاعية كلها بالتفتيش

ولقد عنينا بشرح هذه الكلمة لأنى رأيت كثيرين يسألون عن معناها . . والآن نعود إلى ماكنا بسبيله ، من بيان مظاهر الفقر والجهل والمرض ، فإنك حين تتجول فى تفتيش من هذه التفاتيش الكبرى ، لا ترى أى أثر من آثار الثراء إلا على النظار وما إليهم من الزبانية ، فمنازل الفلاحين ضيقة قصيرة ، مبنية من الطين ، كثير منها يتألف من حجرة واحدة ، وفراغ أمامها للماشية .. وقد تتألف من حجرتين !

وقد تسأل : إذا كان هؤلاء يقيمون بالتفتيش من مائة سنة أو أكثر ، فكيف تسعهم هذه الدور وتسع ذريتهم ؟ . وقد كنت فى زيارة لأحد تفاتيش أو زراعات وزارة الأوقاف ، وكانت المبانى — والحق يقال — مقامة من الحجر ، فسألت نفس السؤال فابتسم محدثى وقال : انظر هذه الدار التى أمامنا ! إنها مؤلفة من حجرة واحدة واسعة ، يقيم فيها رجل مع زوجته ، وله ابنان متزوجان يقيمان معه ويبيتون فيها جميعاً بزوجاتهم وأطفالهم جنباً إلى جنب وله بنت طرأ على القرية شاب مستأجر ، لم يجد له فيها سكناً ، فتزوج من هذه البنت ، وهو يبيت معها فى حظيرة الماشية التى أمام تلك الحجرة تحت أرجل البهائم !! .

ولا أذكر أنى أحسست فى حياتى مثل هذا الوجدان الذى أغرق وجودى كله باحساس غامر لا أملك له بياناً . لقد أحسست

كأن ضميرى يصعق بهذا المنظر الذى يهبط فيه هؤلاء الأناسى إلى مادون آدميتهم ! ! ولن يستطيع أشد الناس جدلا ودفاعا عن تلك الأوضاع أن يقنعك بأن هؤلاء المساكين يعيشون فى حال من الكرامة النفسية ، أو « الحياء الجنسى » أرقى من حال البهيمة أو الدواجن التى يرقدون بجوارها

وصمت ، ولم أقو على الكلام ، فقد كان فى صدرى شىء ينحل تماسكه رويداً رويدا ليصير لجة من العواطف الآسية الممتعضة الباكية

وعرف محدثى ماعرانى ، فقال : إن هذا مما آسف له أشد الأسف ، وإن الناس اعتادوا هذه الحالة من الخزى ، وقد حاولت مرة أن أكون إنساناً ، فما أن خلت حجرة حتى بادرت بنقل رجل وزوجته وبنيه إليها تخفيفاً من حدة الضغط ، لا علاجاً لمشكلة الحياء ، وأخطرت الوزارة بهذا الاجراء ، وماكنت أحسبه اجراء خطيرا تقوم له الوزارة وتقعد ، فقد أرسلت إلى كتيبة من المحققين ، وإذا بالتهم توجه إلى والأسئلة تنزل كالمطر . . كيف أسكن الناس مساكن الحكومة بدون أذنها ؟ كيف أخالف اللوائح ؟ . . كيف لم أؤجر هذه الحجرة ؟ كيف أبدد مال الدولة ؟ . . كيف . . كيف . . !! ولكن الله سلم وانتهت المحنة « بلفت نظر » حتى لا أعود إلى تبديد مال الدولة مرة أخرى !

هذا بعض مظاهر الثراء الذى يمسى ويصبح فى نعيمه المغدق

جماهير الفلاحين من سكان وادى النيل !! . أما الملابس الشائعة فهى الخرق البالية الجرباء ، يمسك بعضها بعضا بالرقع المتناثرة لتؤلف ما يسمى جلبابا . . ولو أنك ساومت أحد السادة أن يمسكها بيده ، لا ان يضعها على جسمه ، لانتفض بدنه ووجدانه من هذا الذى تعرض عليه

والحفاء صيفاً وشتاء هو المظهر الذى يسود رقعة التفتيش كلها من اولها إلى آخرها . .

وطعام أولئك ما هو ؟

إنه خبز الذرة . أو الشعير . ومايخلله من اللفت ، أو الخيار ، أو قشر البطيخ . فاذا سخا على نفسه ، فالمش فى وسطه قطعة صغيرة من الجبن ، يتواثب حولها كثير من الدود . أما اللحم فلا يأكله غالبا إلا فى المواسم وما أقلها

وقد تسأل : أين الدجاج ، أو الحمام . . وأين القشدة ، والزبد والبيض ، واللبن الحليب . . لا تسل عن ذلك ، واذهب إلى أقرب سوق فى التفتيش للقرية فهناك الخبر اليقين ، تعرف منه أن ضغط الايجار الذى لا يعرف حداً ينتهى إليه ، لم يترك لهؤلاء المساكين أن يأكلوا دجاجة أو حمامة ، أو يذوقوا القشدة والزبد والبيض . وإذا عرفت أن نساء القرى التى لا تخضع لسلطان التفاتيش ، وهى قرى أحسن حالا . . إذا عرفت أن نساءها يعير بعضهن بعضا بأنها حامضة البطن ، تضيع خير الدار على هم بطنها ،

وتضع لبن الجاموسة أو قشدتها فى كرشها ، لأن العاقلة منهن ، هى التى تربط حجرا على بطنها ، فلا تأكل البيضة بل تداويها إذا كسرت لتبيعها ، وتضع القرش على القرش ، للوفاء آخر العام بقيمة الايجار ، وإن إحداهن تفاخر بأنها تشق بطنها ولا تأكل شيئا من خير البيت .. إذا عرفت أن هذا دأب القرويات فى القرى السعيدة الخارجة عن نطاق التفتيش ، فانظر أى عيشة يحياها أولئك الأشقياء الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة ! ؟

لا أستطيع بيان ذلك المستوى الذى يعيش فيه الآدميون كالجرذان الشقية العجفاء ، يقرضون العيش الأسود الخشن ، الذى يعاف أحد السادة أن يقدمه لكلب من كلابه . . . فليس من سبيل إلى وصف هذه المعايش إلا أن تذهب بنفسك إلى إقطاعية من تلك الأقطاعيات ، فإنك حين تتجول فى أنحائها الواسعة ، بين تلك الهياكل الآدمية ! يخيل إليك ، أنك فى واد من أودية الفناء الموحشة ، وأن هذه الأشباح التى تراها غادية رائحة ، ليست إلا أرواحا مما يسكن أودية العدم ، تشكلت هياكل عظمية ، غائرة العيون ، بارزة الوجنات والجباه . . . تقوم سلسلة العنق فيها على ترقوتين ، أو خطين من العظام ، يحدثك بروزهما بكل ما وراء الشبح من بؤس وشقوة ، وذل ! ! ! أما عظام الصدر ، فهى ضلوع كل هيكل عظمى ، تستطيع أن تعدها من بعيد عظمة عظمة . . .

وأخشى أن يجمح بى الوصف ، فأقول إن ذراعه النحيلة السوداء المعروقة العظام ، لا ينقصها إلا أن تمسك منجل الخراب الرهيب ، لتظن نفسك أمام هيكل متحرك مما اعتاد الفنانون أن يرسموه رمزا للعدم والخراب ، والفناء ! ! ! .

أما التعليم ، فقد كان السادة إلى عهد قريب يقاومون إنشاء المدارس الأولية أو الإلزامية ، أما الابتدائية أو الثانوية ، فهى بطبيعة الحال ليست فى حلم أحد . . . نعم يقاومونها لأن التعليم يفسد الفلاحين ! ! ! وسيد التفتيش ليس رجلا من عامة الناس هين الكلمة ، أو هزيل المقام . . إنه ذو الكلمة النافذة ، والجاه العريض فلن تقام فى أرضه مدرسة واحدة ، ما دام التعليم كالوباء يصر بالفلاحين ! .

. . . فلما صار من الحتم إنشاء المدارس الإلزامية ، اتخذ السادة الأجلاء من نفوذهم على المدرسين والنظار ما جعلها قليلة الجدوى .

والكلام عن الجهل المطبق ، والظلمة الغليظة ، مما لا يستقل قلم بوصفه ، مما أوقع المساكين فرائس للخرافات ، ودجل المشعوذين وشباك المحتالين والطامعين . . . ولا أنسى يوما دعيت فيه إلى إحدى القرى — ولم تكن من قرى أحد التفاتيش — لافتتاح مسجدها الجديد ، وكانت القرية تحت سلطان أسرة كبيرة ، منها النواب والشيوخ ، والموظفين الكبار وكان خطيب الافتتاح هو

داعية الإسلام فى القرن العشرين غير مدافع ، فظل فضيلته رحمه الله يخطب عن مهمة المساجد ، والمحاريب ، والمنابر ، وأنها لم تكن للعبادة فحسب ، بل كم عقدت فى المساجد من ألوية للجيوش وكم خرجت المحاريب من قادة للحروب ، وكم ارتقى المنابر من ساسة للشعوب . . . وأخذت أنظر فى وجوه أهل القرية ، لأنظر فيها وقع هذا الكلام الجميل الذى يقال عن المساجد والمحاريب لأول مرة . . . فيالله لما رأيت ! ! رأيت عيونا دقيقة غائرة كأنها عيون السحالف لا تطرف . . وأفواها مطبقة ، ووجوها معروقة ، سمراء ، مسفوعة بلفحة البؤس والبرد والحزن ، قائمة على رقاب نحيلة تكوم عليها جلدها الحشف ، كأنها أيضا رقاب السحالف ، وما من أثر على أحدهم لفهم ما يقال ! ! العين جامدة منطفئة لا تبرق بومضة من ومضات الفهم . . . والأفواه عليها شفاه كشفاه الموتى لا تختلج بما يدل على كيان حى متأثر بما يسمع ، والوجوه والأجسام مسمرة كأنها التماثيل . . . ! !

ونزل الداعية الرشيد وصلى بالناس إماما ، ثم انفتل إليهم يعظهم عن الصلاة مرة أخرى ، بعد أن أدرك من عيونهم ، ووجوههم ما أدركت . . . وغير لغته فأخذ يتكلم « عن الحصيرة السوقى » « والحصيرة العمولة » والفرق بين « الحصيرتين » فى « خيط الدوبارة » والسمار المعروف . . . الخ » ليقيس لهم على ذلك أن الصلاة أيضاً نوعان : نوع سوقى ، وآخر « عمولة » . . . وهنا فقط

ولأول مرة . . رأيت شفاه هؤلاء المساكين تنفرج وتبرق عيونهم بلمعة من الفهم ! ! . . . وأراد الداعية الكبير أن يستطرد لبيان الفرق بين الصلاة الجيدة والصلاة الرديئة ، ولكن ألفاظ « الحصيرة والدوبارة » لم يكن لها محل ، فعادت التماثيل إلى ما كانت عليه ، فطوى الرجل حديثه وانتهى ! ! ! .

* * *

وأنت فى غنى عن أن تعرف أن هذا كله يدور فى بلاد النيل أرض الخصب والنماء ، والذهب والفضة ، والخير الوفير ؛ وهو من أعجب العجب الذى إن دل على شىء فعلى شذوذ صارخ فى الأوضاع .

فهؤلاء هم غارسوا الجنان والبساتين ، والحدائق ، ومغرقو مدن مصر وأسواقها بالفاكهة الكثيرة الشهية ، وهم محولو الأراضى اليابسة ، والحقول الجرداء مروجا ضاحكة ، تهتز بالحياة والنضارة والثمر ، الغزير . . . وهم منتجو الذهب والفضة ، من مياه النيل الدا كنة وطميها السخى الذى لا يمل السخاء ، فكيف يكون مصيرهم هذا المصير ؟ . . وأى عقل يسيغ أن يكون نصيبهم هذا النصيب ؟ وأى حيلة ألقى بها الشيطان إلى أوليائه حتى غيروا خلق الله ومسخوا بشريتهم إلى هذا الحد الذى غابوا فيه عن مستوى الإنسانية .

ونكتفى من ذلك بتفتيش سخا ، فهو ملك الحكومة ، لا ملك

للأفراد ، ونختاره أيضا لأن كلاما ألقى عنه منذ قريب فى مجلس النواب ، فكان موضع دهشة ومثار استغراب من الوزراء أنفسهم .

كان هذا التفتيش من أملاك الخديو إسماعيل .. . وظلت الأحداث تداوله بين جهات مختلفة ، فمن الدومين ، إلى مصلحة الأملاك . .. إلى أن استقر أخيرا فى حيازة وزارة الزراعة .

ولا نعيد لك ما ذكرناه سابقا من أن الأهالى لا يملكون مثقال ذرة من أرض هذا التفتيش ، ويكفى أن تعلم أن عمد القرى ، ومشايخها ، لا يملكون الأرض التى تقوم عليها دورهم . ووزارة الزراعة فى هذه الألوف المترامية الأطراف من الأفدنة تزعم أنها تجرى التجارب على الحيوان والدواجن ، وتستنبت مختلف النبات استكشافا للبذور الصالحة . . أما الحيوان الآخر الذى يسمى إنسانا ، فلا تجارب له ، ولا نصيب من عناية الوزاره

لقد أنشأت للحيوان : للجاموس ، والبقر ، والثيران ونحوها حظائر نظيفة ... تنار بالكهرباء ... وقد نشرت صور للجاموس وهى تستحم بالماء النقى .. يغسلها به عمال موظفون لهذه الخدمة .. أما الآدميون فيسكنون المساكن التى حدثناك بعض حديثها فيما سبق ؛ ويشربون الماء العكر الملوث بمختلف جراثيم الأمراض ... نعم يشربون من هذا الماء ، ولا يسمح لهم أن يشربوا

من « حنفيات المياه » النقية التى هى وقف على البهائم وحضرات موظفى التفتيش

ولا تظن يا سيدى أن هذا ضرب من المبالغات ، فهو بعض الصرخة التى صرخها فى البرلمان النائب المحترم الشيخ عباس حمادة . . . بل إنه قال فى مياه الشرب ، إن الأهالى فى فترة الجفاف وهى أربعون يوما ، يشربون من البرك ، لأن المياه الجوفية مالحة . . كل ذلك ولا يسمح للأهالى أن يذوقوا مياه الحنفيات النقية ! . . وقال حضرة النائب ، إن الحيوان هناك يحظى بعناية الأطباء المختصين به . . أما الإنسان فهيهات ! .

والعمال فى هذا التفتيش نوعان :

نوع اسمه « التملية » وهم العمال الدائمون الذين يشتغلون بلا انقطاع . . ويعمل الواحد طول العام ، مقابل ثلثى فدان ، أو فدان يزرعه بدون إيجار .

ونوع اسمه « زهورات » وهو أحدث خدمة من السابق ، وأقل أجرا إذ ليس له الإنصف فدان .

وهناك فئة ثالثة اسمها « الخطرية » أى التى تعمل باختيارها فى أرض التفتيش بأجرة يومية .

أما « التملية والزهورات » فيعملون طول العام . . ليس لهم

إجازة خميس أو جمعة . . وليست لهم إجازة فى موسم من المواسم . . .

لقد قيل فى مجلس النواب شىء من هذا فقال بعضهم إنه شىء عجيب ، وكانوا كأنما يسمعون أقاصيص القرون الأولى . . فتابعنى فيما أسرد عليك من قول الحق ، نقلا عن موظفى التفتيش أنفسهم . . ليست هناك أجازات فى أى يوم من أيام السنة . . ولكن إذا جاء أحد العيدين وصادف قلة فيما يطلب من العمل ، فله يوم واحد ، أما إذا كانت الأعمال كثيرة — وما أكثر ما تكون كذلك — فلا أجازة فى عيد أو غيره ! !

فإذا أراد التمثى السعيد أن يزوج بنته ، أو إبنه ، أو ماتت أمه ، أو زوجته ، بل إذا مرض . . إذا انقطع عن العمل لشأن من هذه الشئون فلن يقال إنه فى أجازة مرضية ، أو اعتيادية ، بل متمرد ، فيعاقب بأن يستأجر « نفر » من « الخطرية » يشتغل مكانه ، وتدفع له أجرته من خزانة التفتيش . . ثم يثبت الكاتب المختص تلك الحالة فى ملف ذلك الذى مرض أو انقطع لموت أمه . . ويثبت المبلغ الذى دفع « للنفر الخطرى » .

ويتوالى العمل فى أرض التفتيش ، ويقتضى رى الأرض أن يسهر المسكين أمام المياه ليلا ، فيقضى نهاره عاملا ، وليله ساهرا لا يغفو إلا لماما .

وتهجم أيام حصد محاصيل القمح والأرز ، والعمال الدائمون

لا ينهض عددهم بمواجهة ضرورة جمع المحصول بسرعة قبل تعرضه للتلف ، والتفتيش الحريص على مال الدولة ، لا يرضيه أن يستأجر « أنفارا من الخطرية » على حسابه لمعاونة الآخرين فى جمع المحصول قبل تعرضه للتلف ، فيلقى الشيطان المريد إلى قلوبهم المقدودة من الصخر ، أن يقسموا هذه المساحات الشاسعة على النملية والزهورات ويفرضوا عليهم الانتهاء من حصدها فى مدى معين فإن انتهوا فبها ونعمت ، وإلا فإن الوزارة ، أى الحكومة الرشيدة ، تستأجر « أنفارا من الخطرية » على حسابهم عقابا لهم على التأخير والإهمال! ونصيب الرجل من هذه المساحات ، قدر من الأفدنة لا يستطيع — قطعا — أن يحصدها وحده فى المدى المضروب له ، وعليه أن يختار بين أن يستعين بزوجته وأبنائه ومن شاء من أصهاره أو تستأجر له الحكومة على حسابه رجلا من الخطرية .

وينتهى العام ، ويقدم موعد الحساب ، فيجد المسكين أن قد سجلت عليه الحكومة من الديون جنيهين أو ثلاثة أو أكثر ، دفعتها « للخطرية » الذين قاموا بالعمل نيابة عنه وهو مريض أو ساعدوه فى الفريضة الثقيلة التى فرضتها عليه فى حصد المحصول... ولا يسمح له بنقل محصول فدانه ، أو نصف الفدان الذى خصص له ، إلا بعد أن يخصم قيمة الدين من هذا المحصول ! ! .

. . . ولك أن تسأل : ومن الذى يزرع له الفدان أو نصف

الفدان الذى تفضلت به عليه الحكومة ؟ وهو سؤال لا محل له ، لأن زوجته لم تخلق للبيت ، بل خلقت لكل شىء . . . فهى التى تزرع له الفدان ، وهى التى تساعده فيما يصيبه من محنة حصد المحصول ، وهى تقوم بعد ذلك بخدمة البيت .

فإذا أردت أن تعرف سر فقر هؤلاء المساكين ، فاقدر له ما ترى من أجر يومى حلال يجزى ما قدم من عمل . . ثم اضرب ذلك الأجر فى ٣٦٥ يوما ، ولا أقول فى ٤٠٠ يوم . . ثم انظر الفرق الشاسع بين حاصل الضرب ، وإيجار الفدان أو نصف الفدان فإنك — إذاً — تعرف سر هذا الفقر .

° ° °

ودعنى أحدثك بعض الشىء عن « الخطرية » إن منهم نساء ، ورجالا ، وفتيات وفتيانا . .

أما الفتاة التى لا جمال لها ، فعملها فى الحقل . . هكذا قرر حضرة النائب فى البرلمان . . وإذا كان الحقل من نصيبها ، فهى لا تعمل فيه إلا إذا خلا مكان أحد التملية بالمرض أو نحوه . أى أن شأنها كشأن أى خطرى آخر ، لا يعمل فى أرض التفتيش إلا عند الحاجة إليه .

أما الجميلة ، فلا تعمل عند الحاجة . . لأن الحاجة إليها دائمة . . ولا تعمل فى الحقل ، بل تعمل فى بيت الموظف ، تخدم زوجته

إذ كان متزوجا ، أو تقوم له بمهمة الزوجة إذا كان عزبا .. فإذا كان لها أخوة كانت سبب نعمتهم ، فالخطرى منهم يسرح إلى الحقل دائما بدون انقطاع ، دون غيره ، وقد تختار له وظيفة « خفير » وهى من الوظائف الممتازة فى التفتيش بالنسبة لهؤلاء المساكين .. وكثيرا ما تحدث المآسى الفاجعة التى تجىء خاتمة لهذه المهازل المجرمة القذرة .

ومن حق الخطرية أن يعلم الناس عنهم أنه لا عمل لهم إلا إذا مرض مريض ، أو انقطع منقطع عن العمل ، فإذا لم يمرض أحد ، أو لم ينقطع ، فلا عمل لهم .. وقد يمضى العام دون أن يشتغل بعضهم إلا أياما معدودة .. ولهذا تراهم ينظرون إلى التملية كأنهم فى نعيم سابغ يحسدون عليه ! .

ومن الجرم الفاجر الذى تتردد العقول فى تصديقه ، أن هؤلاء المساكين ممنوعون من العمل فى التفاتيش المجاورة المملوكة لآخرين .. ففلان بك أوفلان باشا الذى يملك اقطاعيات مجاورة قد يحتاج فى بعض المواسم أو فى بعض الأحيان إلى الأيدى العاملة .. ولكن الويل لمن تحدثه نفسه من هؤلاء « الخطرية » أن يقبل العمل هناك !.. يحذف إسمه من الديوان ، ويطرد من دار الحكومة التى يسكنها ، ولا يبقى فى التفتيش لحظة واحدة .. وذلك حتى لا يعرف هؤلاء التعساء معنى الأجور المجزية ، أو الشبيهة بالمجزية ، فتدخل الروح الشيوعية بين عمال التفتيش السعيد !!

ولقد حدثت أن أحد المسئولين بتفتيش سخا رأى إحدى سيارات النقل التابعة لتفتيش الخاصة الملكية بكفر الشيخ ، رآها تدخل منطقته ، فلما علم أنها جاءت لتنقل عمالا من « الخطرية » للعمل بتفتيش الخاصة ، أخذته العزة بالإثم . وطرد السيارة .. واهتزت بعدها بقليل ، الأسلاك ، ودقت الأجراس وذعر المفتش وقامت الدنيا وقعدت ، واستثنيت الخاصة الملكية من هذه القاعدة التى لانعرف لها وصفاً يفى ببيان ما فيها من إجرام فاجر بشع !

ولقد ذكر النائب المحترم الشيخ عباس حمادة تعليقا على هذه الحالة أغنانا عن كل تعليق ، إذ قال : « ووزارة الزراعة تستأجر العمال بطريقة هى أجدر بالقرون الوسطى ، وعهود الأقطاع ، منها بعصر النور والحرية الذى نعيش فيه .. وقد قصدت الوزارة بهذه الطريقة ربط العامل بالأرض حتى يتسنى بذلك إذلال نفسه وقتل حريته ، تلك الحرية التى هى أولى حقوق البشر . ووسيلتها فى ذلك تهديد العامل بالطرد من أطيان الوزارة بل من بلاد الوزارة بأسرها ، إذا بدرت منه أى هفوة مهما قل شأنها وهو فى الحقيقة لم يرتكب إثما ، سوى أنه قدر له أن يخلق فى تلك البلاد التعسة البائسة .

وقال فى مكان آخر : « وهى — وزارة الزراعة — مع الأسف الشديد تعامل الأهالى معاملة تذكرنا بما كان يجرى فى القرون الوسطى ، وإذا كان التاريخ قد علمنا أن مصر كانت تعتبر

« جرنا ، فى عهد الرومان ، فان البلاد التابعة لوزارة الزراعة الآن تعتبر جرنا لإكثار البذور ، فأهالى تلك البلاد يكدون ويكدحون ليروا بأعينهم ثمرة جهدهم تعباً لتوزيعها على كبار الملاك .. وإن كان قد قدر لهم أن يتحملوا ذلك إلى الآن ، فإنى أعتقد أن الوقت قد حان لأن تنفجر نفوسهم ، وعندئذ لن تستطيع الحكومة أن تحول بينهم وبين ما يصبون إليه .. كأن هؤلاء يدفعون بتحملهم تلك المعاملة الشاذة القاسية ضريبة مجرد بقائهم فى أرض تلك البلاد ، وهى ضريبة فادحة ، أوجدت البطالة . ونشرت الفساد . وهوت بالأخلاق .. حتى أصبحت تلك الجهات كأنها مرجل ينذر بالانفجار وبالشر المستطير » . انتهى كلام حضرة النائب .

ولابد أنه وقر فى ذهنك الآن أن وزارة الزراعة بهذه الوسائل الشاذة القاسية ، قد استطاعت أن تضاعف من دخل الخزانة العامة ، وتساهم فى إمداد ميزانية الدولة بقدر محمود .. وذلك هو الطبعى ، فالأرض أضحت بهذه الوسائل التى لم يسمع بها ، كأنها تزرع مجانا .. ولكن من الفضائح المخزية أن هذه الأراضى تخسر ، ولا تربح ، وتحمل الخزانة العامة أعباء خسائرها المريبة .. وذلك هو ماتضمنه تقرير اللجنة المالية بمجلس النواب ! وذلك هو ماحمل تلك اللجنة أن تقترح على الحكومة تأجير تلك الأرض للناس ، والعدول عن زراعتها .

وبعد فهذا لون من ألوان معيشة الفلاحين ، فى تفتيش من

التفاتيش ، ولانجزم بأن الحال فى التفاتيش الأخرى ، كهذه الحال ، فقد تكون أسوأ منها ، أو أهون ، وقد يخلو بعضها من ذلك . وقليل ماهى ، ولكننا نحب أن نلفت أنظار أولئك الجهلة المخدوعين بالشيوعية ، إلى مآسى ذلك التفتيش ! .

أليسوا يريدون تحريم الملكية الفردية ، وانتقال كل ملك للدولة ؟ أو ليسوا يريدون أن تؤول الأرض الزراعية كلها إلى الحكومة لتديرها وتشرف عليها ؟ . إذاً ، فهم يريدون أن نصبح جميعاً « تملية » و « زهورات » و « خطرية » ويريدون أن نعيش تلك العيشة التى يحظى فيها الحيوان بما لايحظى به الإنسان !!.. ويريدون أن نصبح جميعاً تحت سلطان موظفى الحكومة يتصرفون فينا كما يتصرف تاجر الرقيق فى رقيقه ، ويجعلون من بناتنا حظايا لفراش الفسق .

إننا نهيب بهؤلاء المخدوعين — إذا كانوا حقاً يريدون الإصلاح والعدالة — أن يتأملوا هذا اللون من ألوان الإدارة الحكومية ، يقيسوا عليه المصير الذى يؤل إليه حال الناس ، حين تصبح الحكومة مالكة لجميع الأراضى !!

إن الظلم شىء . . وعلاجه بالجهل وقصر النظر والفوضى شىء آخر . . وماحسن أن نبادر بالتشكيك فى نيات أعداء الشيوعية ، واتهامهم بأنهم أعوان الظلمة والرأسماليين . . إن أحداً لايرضى بالظلم ، لايرضاه لنفسه ولا لغيره ، ولكن من الظلم أن أعالج

الداء الحاضر ، بداء سيحل حتما عن قريب أو بعيد ؛ وإن تحقق العدالة التى ينشدها الخيرون ، العدالة الطبعية القائمة على سنن الله ، وفطرة المجتمع ، لايكون أبداً بالمسكنات الوقتية ، والحلول الآلية التى لاشىء فيها غير قصر النظر والغباوة !!

ونريد أن نسأل هؤلاء إذا صارت جميع الأراضى ملكا للدولة — لاقدر الله — هل يطرأ تغيير على أهالى تفتيش سخا ؟ هل يصبحون مالكين ؟ إن المساكين يريدون تغيير مابهم بجدع الأنف ، ولو باستئجار الأرض — لابملكها — فلا يظفرون أفما نريد لهم أن يتغير حالهم إلى شىء من رفاهة البال ؟

قد يقول قائلهم إن نظام الإدارة سيضمن للجميع عدالة التوزيع والمساواة فى خيرات الدولة إلى آخر مايهرفون به ؛ فإذا كانوا يحسنون الظن بطبقة الحكام حين يصبحون شيوعيين ، فلماذا لايظنون بهم هذا الظن الحسن فى غير الحكم الشيوعى ؟.. إن الإنسان هو الإنسان ، شيوعياً كان أو رأسمالياً أو غير ذلك ولن يكون هذا الإنسان شيئاً فاضلا أبداً إلا إذا غدا وجدانه ، محكوما لابقبضة القانون والإرهاب ، ولكن بسلطان المثل العليا ، وهيمنة فضائل العدل والمساواة والرحمة ، وتقدير كل من القيم الروحية والمادية قدرها الصادق الحق . وهذا ياقوم لن نجده إلافى الإسلام . أو فدلونا على شىء خير من هذا نتبعه ، أو فقولوا أنكم تسيئون الظن بمثل الفضيلة والخير نفسها ، وأن الإنسان يجب

أن يظل ذلك المخلوق الوضيع الذى يرتكس ويختبط فى تلك المجموعة الدنيئة من شرور الحيوانية المستهترة .

إن تلك الجهود المجرمة التى تبذل لإثارة مشاعر الناس ، وإيقاظ الفتن ، وتجميع المخدوعين للشر والفوضى ، أولى بأصحابها أن يبذلوا بعضها فى التبشير بالخلق الحسن ، والإيمان الحق ، ومبادىء الخير التى بسطنا بعضها ، ونرجو أن يوفقنا الله إلى بسط بعضها الآخر ، ونسأل الله لهم ولنا سواء السبيل .

ونريد أن نهمس للحكومة ، هل قصدت الإبقاء على تفتيش سخا لتكون إدارته دعاية قوية مقنعة بسوء عواقب النظام الشيوعى ، أم أن ذلك جاء رمية من غير رام ؟. وأيا كان الأمر فإنصاف هؤلاء المساكين ، وأمثالهم لن يترتب عليه إلا تقويض كل حجة وكل دعاية لمبادىء الهدم والتقويض والفوضى . فابدئى الإصلاح والإنصاف ، وطبق فى جد مبادىء العدل والمساواة !

صفقات الايجار السكرى :

وقد اقترحت اللجنة تأجير الأرض للأهالى والعدول عن زراعتها ؛ ولا ندرى هل بعثها على هذا الاقتراح رغبتها فى إعفاء خزانة الدولة من تحمل الخسائر ، أم راعت إلى جانب ذلك معنى الرحمة بالأهالى ؟

إنها رمت بلا شك إلى تخفيف أعباء الخزانة . . فاذا كان من

قصدها التيسير على الناس كذلك ، فان الواجب كان يقضى عليها بنصح الحكومة ، أن يكون التأجير منها للفلاح مباشرة ، دون اللجوء إلى ما تتبعه فى تفانيشها الأخرى من تأجيرها صفقة واحدة لكبير من الأثرياء أو ذوى الجاه والنفوذ . . فان تأجيرها للفلاح مباشرة هو عين الرخاء وسبيل من سبل علاج الفقر الذى عز علاجه على الجميع !

إن عادة تأجير الأرض صفقات كبرى اتسعت وانتشرت وصارت موضع الألم والشكوى ، والحسد والبغض والتمرد .

تعلن الحكومة أو غيرها تأجير إقطاعية صفقة واحدة ، فلا يتقدم إلا كبار الأثرياء بطبيعة الحال، أو من لهم بعض النفوذ . . فاذا كانت أرضاً حكومية ، أو تابعة لوقف منسى ، أو ملكا لجمعية كبرى ليس فيها من يحاسب المتصرف الخطير ، ذا المنصب الكبير أو الجاه الذى لا يقل عن جاه وزير . . إذا كانت الصفقة من هذا القبيل أجرت « بالممارسة » أو أجرى لها مزاد صورى ، ليتم العقد لأحد الأنصار أو الأصهار ، أو الأبناء أو نحوهم من ذوى القربى والمحسوبين على ذوى الحل والعقد ، بأرخص القيم . . ليؤجرها من « بطنه » بقيمة فاحشة .

أما غير ذلك من الاقطاعيات فيؤجره ذووه بالإيجار الذى يملأ عيونهم ، ويرضى أطماعهم التى لا تكاد ترضى بشىء .

فاذا كتب عقد الإيجار ، واطمأن كل ملتزم إلى ما صار تحت يده ، وكانت الصفقة كبيرة ، أخذ فى تقسيمها قطعاً صغيرة ، فهذه مائة فدان ، وتلك سبعون ، والثالثة خمسون ، والرابعة ؟ وهكذا

ثم يعلن حضرته تأجير تلك القطع لمن يزيد ! ! وهى قطع تزيد على طاقة الفلاح العادى أن يخدمها ويزرعها ، فلا يتقدم الفلاح « للمزاد » بل يتقدم قطيع من الأعيان العاطلين ، أو صغار الأعيان ، وبعض الموظفين متسترين وراء بعض أقاربهم . . . ويزيد بعضهم على بعض . . ويدخل الشيطان طرفاً ثالثاً فيذكى المنافسة ، وينفخ فى الصدور بالعناد ، والعداوة والبغضاء ، فلا يكاد أحدهم يكف يده عن « المزاد » إلا بعد أن يرى أن لا خير له من ورائه ! !

وتتساءل : هل يقوم هؤلاء بزراعة الأرض التى استأجروها بالمزاد ؟ .

لا . . . إن هؤلاء دخلوا تجاراً أو جلادين ، لا زراعاً ! ولو أن واحداً منهم دار بخلده أنه سيلزم زراعتها ، لهرب منها مستعيذا بالله ! ! ولكنه الربح الهين والمكسب الذى لا عناء فيه ! ! الربح الذى لا يكلفه إلا ساعة أو ساعتين يحضرهما فى جلسة « المزاد » ثم يخرج على أثرها حاكما فى رقاب الاقطاعية ! !

إن هؤلاء الغلاظ المتعطلين ، يعرض كل منهم نصيبه ليؤجره من « بطنه » الذى لا يشبع . . يؤجره للفلاح المسكين . . . وقد

اعتاد الفلاح أن يرهب هذا الفظ الغليظ ، لنفوذه فى القرية وغير القرية ، فلابد من الخضوع لمشيئته ، وما مشيئته إلا القيمة القاصمة التى يفرضها على كل فدان .

ولا تستطيع الحكومة إذا كانت هى المالكة ، أن تقول لكبار المستأجرين رفقا بمن وراءكم ، فانها أجرت وليس لها إلا أن تقبض إيجارها ، وللمستأجر الكبير أن يفعل مايشاء بالمستأجر الصغير !!

إن هذه صفقات لايراعى فيها فى الحقيقة استئجار الطين ، ولكن استغلال من فيها من عباد الله المساكين .. ولو أنهم كانوا يريدون استئجارها للزراعة ، لما أغلوها على أنفسهم ولما حملوها هذا القدر من الإيجار . ولكن هذا لم يرد لأحدهم على بال . وإنما ورد عليه إن وراء هذه الأرض ناسا من بنى آدم هم الذين سيكدون ، ويكدحون ، ويؤدون ما يمليه عليهم أو مايفرضه من المكاسب لنفسه ، ولمن فوقه ، فإذا تبقى لهم شىء بعد ذلك منها ، وإلافليس أحد مسئولا عن رفاهتهم مادام السادة قد ذهبوا بما يشاءون من رفاهة ونعيم .

خبرنى بربك : ماذا كان من هؤلاء السادة حتى يذهبوا بكل هذه المكاسب ؟ .

قالوا إنها تجارة مباحة ، كذبوا ؟ فالتجارة مجلوب يأتى ، أو صادر يذهب ، أو هى على كل حال مبادلة تقوم على تيسير المنافع وقضاء الحوائج فأى شىء فى هذه الصفقات الجائرة يجعلها

شبيهة بالتجارة ؟.. وأى منفعة عادت على الفلاح من وساطتهم بينه وبين المالك الأول .

أى منفعة غير الإرهاق ، والغم ، والفقر والعيش النكد ؟

شيطان الالتزام :

هل أتاك يا أخى نبأ الالتزام ؟ ؟ إن الذين قرأوا التاريخ يعرفون ما كان فى مصر أيام المماليك والأتراك من نظام الالتزام ، حينما كان يدفع شخص ما مبلغا من المال ، للجهات الإدارية ، لتطلق له السلطان فى الإقليم الذى يريده .

والويل لأهل الإقليم بعد ذلك ! ! لقد كان هذا الملتزم فى تلك العهود المظلمة يتحول إلى شيطان من شياطين الجحيم حين يفرض على الناس ما يشاء لنفسه باسم الضرائب ؛ لقد كان هؤلاء الشياطين لا يقفون فى جبايتهم عند حد . ولا يدعون وسيلة من وسائل التعذيب الوحشى إلا حملوا الناس عليها . . . وما عهد العدة والكرباج منا بمجهول ! .

ذلك هو شأن الالتزام الذى عانته مصر المسكينة فى حقبة من تاريخها فهل يا ترى لجت الأشداق بهذا النظام فعاد يقرع أبوابنا بقرونه السود ؟

أجل : إنه شيطان الالتزام يبعث فى صورة الصفقات الزراعية الكبرى ! ! فالرجل هو الرجل يدفع المال للجهات الإدارية لتطلق

يده فى إقليم ما ، أو جهة ما ، ولا فرق بين الرجلين إلا أن الملتزم كان يجمع باسم الضرائب ، وصاحب الصفقات يجمع باسم عقود الإيجار .

ولا تظن يا أخى أن بشاعة الالتزام فى العدة والكرباج ، وإنما بشاعته فى استنزاف معين الحياة من بنى آدم ، دون أن يعرف للاستنزاف حدود أو قيود ! ! أما العدة والكرباج فما كانت إلا وسيلة الجباية والتحصيل يومئذ . ولو أنهم كانوا يعرفون غيرها من الوسائل ، أو لو أنهم كانوا يظفرون بما يريدون من الفريسة بسهولة لما جنحوا إلى أساليبهم الجهنمية ! . . لم تفكر الحكومة فى قيد تقيد به صاحب الصفقة ، فلها إيجارها فحسب وله بعد ذلك أن يفعل ما يشاء ! ! له أن يفعل ما يشاء ، والبوليس والقضاة والموظفون ، والمحضرون ، وعمد البلاد ، ومشايخها ، وخفراؤها كل أولئك وسائل معبأة للتحصيل والجباية . . . تجبى له مالا تجبى العدة والكرباج ، وينجو به بعد ذلك أن يكون من طراز أهل العدة والكرباج .

ترى لو كان نظام الالتزام حياة أكان يذهب وحده بلعنة الأجيال دون هذه الصفقات ؟

ولقد رأيت أرملة قروية ، فى خرقها الجرباء البالية ، ترفع وجهها إلى السماء ، وتدق بيدها على صدرها ، تدعو الله أن يخرب بيته ، وأن ينتقم من ذريته ، وألا يبارك له فى بدنه ، فلم أوخذ بهول

الدعاء كما أخذت بهول القلب المحترق ولهيب الغيظ فى صوت المتمرد المحنق المظلوم . وسألت عن شأنها فقيل إن فلانا فرض عليها كذا للفدان ، فلما انتهى العام لم يبق لها شىء من المحصول بعد أداء الإيجار . . وتسألنى كيف يعيش أمثال هؤلاء ؟ ولو أنهم كانوا يعيشون لأجبتك ! فسلنى على التحقيق . . أجبك كيف يموتون ، لا كيف يعيشون ! ؟

* * *

فالآفة أن عندنا — كما عند غيرنا — طائفة تسمن وتنتفخ ، لأنها تعيش على امتصاص ضحاياها .. فما أشبهها بالعلق الأسود الذى يعلق فيمتص دماء بعض المرضى حتى يسمن وينتفخ ، مع فارق كبير أو صغير ، وهو أن العلق إذا شبع وانتفخ ترك مريضه ثم سقط وهلك . أما هؤلاء فينتفخون ولا يشبعون ؛ ويمتصون الدماء ولا يهلكون . . وهناك فارق آخر أن المريض قد يتخلص من الدم الفاسد الذى امتصه العلق ، فيصح ويعتدل مزاجه ، أما هؤلاء فلا يمتصون إلا عصارة الحياة النقية ، فلا يتركون ضحاياهم إلا أجساماً مهزولة بين الحياة والموت ، وهذا شر ما تبتلى به الأوضاع فى أمة .

إن الثروة بنت العمل ، وهؤلاء أرباب العمل ، فأين ما معهم من ثروة ؟

إذا كانت الحكومة جادة فى علاج الفقر والجهل والمرض ، فلتعلم أن النيل لن يحمل إلينا من الذهب أكثر مما حمل ، وعليها أن لا تسلط ذئابنا الجائعة على منتجى الذهب والفضة . ولتعلم أن كثيراً من الذين ينادون بعلاج الفقر والجهل والمرض ، هم أنفسهم سبب الفقر والجهل والمرض . بل إن النيل لو حمل لنا من سر الخصب أضعاف ما يحمل ، وأحيا لنا من موات الأرض والصحارى أضعاف ما تحت أيدينا ، لامتدت أذرع هؤلاء الشياطين ، وأخذت كل ما جاد به النهر ، وظلت بعدها أنشودة الفقر والجهل والمرض تذرع البلاد من أقصاها إلى أقصاها هائمة بين الأرواح التى تشكلت هياكل عظمية تحكى ما اعتاد أن يرسمه الفنانون رمزاً للفناء ، والخراب ، والعدم!

فباسم الغيرة على الحق والرغبة فى رفاهة هؤلاء المساكين يلح على أولى الأمر أن يبادروا بأبطال هذه المخازى ! . لا إحقاقاً للحق فقط ، ولا إزهاقاً للباطل فحسب ، ولكن لأن الزمام أوشك أن يفلت ، وبدأت الفريسة التعسة تتحول تحت هذا الضغط الدنىء ، إلى وحش شرس حقود

إن من امتهان العقول أن نقترح علاجاً لهذه الكوارث ، فالحلال بين ، والحرام بين ، وليس فى الوقت متسع للهزل ، فخير لنا ولأمتنا أن نفتح العيون على حقيقة ما نتجاهله ، ونعالج الأمر على ضوء ما عرفنا من تجارب ، والسعيد من اتعظ بغيره ، ولن

يعجز سادتنا أن يستجيبوا للرجاء ، فأنهار الذهب والفضة تجرى بين أيديهم ، وهم حينئذ لا يستجيبون لصدقة أو تطوع ، بل يؤدون حقوقاً إلى أربابها ، ويقون أنفسهم وأهليهم ناراً وقودها الناس والحجارة ، ويقيمون المجتمع على أسسه العادلة الوطيدة : « فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ، وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ، إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ماتكتمون ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال رب احكم بالحق ، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون »

كلمة أخيرة

ونورد هنا فى هذا الفصل كلمة ندحض بها ما يفترى الآثمون على الإسلام من أنه دين توا كل وكسل وركون إلى الراحة من عناء العمل ، حتى أوشك كثير من الشباب أن يخدع لضلالتهم ، ويصدق ما يرجفون به . .

العمل والزهد :

ومما يدل على سوء نية هؤلاء المضللين أنهم تجاهلوا كل مايعرف الخاصة والعامة من الآيات والأحاديث الواردة فى الحث على طلب الرزق . وجهدوا أن يستروه عن العيون والأسماع ، ولم يظهروا إلا ما جاء عن الرضا بما قسم الله ، والكف عن التطلع إلى ما فى أيدى الناس ، من زهرة الحياة الدنيا .

وراحوا يرجفون بين البسطاء بما جاء عن الزهد ، ويؤولونه بما لا يستقيم مع مقاصد الدين ، وليس له فى أذهانهم ، أو فى زعمهم إلا أنه هو ترك العمل ، ونفض اليد من كل ما يصلح هذه الأرض

هذه هى الضلالة التى حاولوا أن ينفذوا بها إلى عقول بعض الشباب ، ليسهل عليهم أن يضعفوا ثقتهم بدينهم ، ليوجهوهم بعد ذلك إلى ما يريدون .

ونحب هنا أن نقرر أن الدين الذى جاء بالرضا ، والنهى عن التطلع إلى مافى أيدى الناس ، هو هو الذى جاء بالعمل وحث عليه ، وجعله قسيم الصلاة فى قوله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » ، « وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع » فالمرء على هذا مقسم بين عبادة وعمل ، وسعى وصلاة ، ومسجد وسوق .

ولا تناقض أبداً فى الدين حين أمر بالعمل . وحين دعا إلى الرضا بما قسم الله ، فإن الناس حين ينتشرون فى الأرض لا يصيبون منها إلا بمقدار ماترشحهم له قواهم البدنية ، أو مواهبهم العقلية ، أوملكاتهم الأخرى .. فمنهم من يعود ومعه القليل دون أن يظلمه أحد ، ومنهم من يعود ومعه الكثير دون أن يغتصب حق أحد ، فالرضا فى هذه الحالة الطبيعية العادلة ، يغمر نفس صاحبه بطمأنينة وسعادة ، تجعله ينسى مابينه وبين غيره من فروق مادية .

هذا فى الحال الطبيعية العادلة ، أما فى غير الحالات العادلة التى يعتدى فيها القوى على الضعيف ، فيظلمه ويغتصب حقه ، فيعود الأول بالكثير ، ويثوب الآخر بالقليل ، فالرضا هو الجريمة ، لأنه سكوت عن المنكر الذى أمرنا بإزالته .

والدين حين يأمر بالثورة فى هذه الحالة ، لايدخل فى حسابه قلة الرزق أو كثرته ، وإنما يهتم فقط بإزالة المظالم ، وإقرار العدالة . ليجنى كل عامل ثمرة عمله فى الحياة ، ولتستقيم الحقوق على دستورها القويم العادل « وأن ليس للإنسان إلا ماسعى » .

وأمر الدين كذلك أن لايمد الرجل عينه إلى مامع غيره ، لأنه يعود عليه بالحسرة والذلة .

يعود بالحسرة لأنه يرى مايتقلب فيه غيره من نعيم ، ومايعانيه هو من حرمان ، فيصاب بالضجر والشقاء ، وتتغير فى نظره مقاييس السعادة ، فيراها مادية سطحية ، لاروحية قلبية . . وهذا خطأ كبير لايحب الدين أن يقع فيه أحد أو يشقى به .. وأما أنه يعود بالذلة ، فلأن الفقير حين يرى نعمة غيره ، ينكسر له ، ويذل طمعاً أن يصيب مما عنده ، أو يحظى لديه بمنزلة .. وهذا باب من الشر أيسر عواقبه أنه يخلق جيلا من الضعفاء الأذلاء الذين يعيشون فى كنف النفاق والاستخذاء .

ونادى الدين أخيراً بالزهد بعد أن فتح للناس آفاق المثل العليا ، وعرفهم أن تحصيل المال وحيازة المتاع ، إن هو إلا مرحلة

أولى فى طريق الكمال الإنسانى ، مرحلة أولى لها مابعدها من مراحل كثيرة ، ومنازل متعددة ، يتقلب فيها المرء ويتدرج نحو الغاية العليا من كمال النفس وسمو الخلق وسعادة الضمير .

وإنسانية الإنسان إنما تقاس بما يقطع من منازل هذا الطريق .

وما امتاز الإنسان من الحيوان إلا بقابليته للتطور فى مدارج هذا الكمال .

فإذا وقف شخص ما ، عند المرحلة الأولى ، فقد انقطع فى الطريق وتخلف عن غايته ، ورفض مسايرة أسباب التطور التى تخرجه من حظيرة الحيوان ، إلى رياض الإنسانية المهذبة الكريمة ، والرضا بهذا التخلف ، إنما هو رضا بالمنزلة الدون ، وقعود عما أعد له من منازل الفضل والكمال .

أرأيت إلى طالب العلم عندنا ماذا يكون له عندك من النصح ، لو أنه انقطع باختياره عند مرحلة التعليم الابتدائى ، وقعد عما ترشحه له مواهبه وثروته من استكمال مراحل التعليم ؟ إنك إذا أردت أن تنصح ذلك الطالب ، فلن تكون النصيحة بالغة نافذة ، إلا إذا زينت له الكمال العلمى ، وزهدته فى الاكتفاء بالمرحلة التى وقف عندها ، فإذا نفذت منه إلى هذين الغرضين ، وجدته يعاف النقص فى التعليم ، ويزهد فى المرحلة التى بلغها ، فلا يلبث أن يغادرها إلى ما وراءها .

والإسلام لم يسلك مع الإنسان إلا هذا المسلك الحكيم من النصح والإرشاد ، فقد رأى أكثر الناس ينقطعون عن إدراك حظوظهم من كمال النفس وسعادة الروح ، ويرضون الوقوف عند مرحلة المتاع الأرضى ، والعيش الحيوانى ، فلم يرض لهم البقاء فى هذه المنزلة المبتورة الناقصة ، فزهدهم فيها ، وبعث هممهم إلى ما هو أعلى .

وبدهى أن الزهد هنا ليس معناه الانصراف عن تحصيل المال ، وترك مافى الأرض من حطام ، وإنما هو التزهيد فى منزلة الاستمتاع الحيوانى ، وزجر الهمة عن الاستغراق فى الشهوات الأرضية التى يأتى بها المال ، ونحوه ؛ فإن وراء هذا من ألوان الكمال وأنواع السعادة ، مايجب أن تنبعث إليه الهمم والآمال . . كما أن نصيحتك للطالب ليس معناها ترك العلم ، وإنما التزهيد فى الاكتفاء بالقدر الناقص منه .

نبى الإسلام هو العامل الأول :

ومما يقطع دابر هذه الفرية أن نبى الإسلام عليه السلام يعتبر من صميم العمال بسيرته المأثورة عنه من أولها إلى آخرها ، بل يعتبر العامل الأول .. !

العامل الأول عن تجربة ، ومزاولة ، ومعاناة .

العامل الأول عن معاشرة ومخالطة ومعاطفة ومصافاة .

العامل الأول الذى يجب على كل عامل أن يجعله قدوته فى عمله . . وخلقه ، وتدينه .. ورقة سجاياه .

١ — فقد كان فى صباه راعى الغنم ، يرعاها لغيره على أجر يحصل له منه .. فهو من هذه الزاوية قدوة الرعاة .

٢ — وكان عاملا فى التجارة بمال غيره ، وله فى ذلك أمانته المشهورة ونشاطه الجم ، وكفاءته الخصبة .. فهو من هذه الناحية قدوة عمال التجارة .

٣ — وكان تاجراً بماله بعد ذلك فكان نعم التاجر الصدوق .. فهو قدوة التجار .

٤ — وكان يرقع ثوبه بيده .. ويخصف نعله بيده .. وتلك سنة يطيب لها خاطر عمال هاتين الحرفتين .

٥ — وكان الخدم ربما يقصدونه عليه السلام ليعينهم على شراء ما كلفوا شراءه من السوق ، فكان يذهب معهم ، وينفذ لهم ما يشاءون .

٦ — وكان جل أنصاره عليه السلام فى دعوته الكبرى ، من شباب العمال حدادين ، ونجارين ، وخياطين ، وجزارين ، وغير ذلك من أنواع الحرف والمهن ، حتى كان غلاظ المستكبرين يعيبون عليه أن الأساكفة من أنصاره ، ويسخرون به وبمن معه.

٧ — وكان عليه السلام ربما تحدث إلى العامل بما يحبب إليه

حرفته ، وقد روى الإمام الغزالى ، أن عاملا جاءه فقال يارسول الله : ما تقول فى حرفتى ؟ .. قال وما حرفتك ؟ .. قال حائك . . قال حرفتك حرفة أبينا آدم عليه السلام .. وكان أول من نسج ، وكان جبريل يعلمه ..

وكان يشجع النجارين ، ويذكر لهم ما يتيمنون به فى حرفتهم بمثل قوله عليه السلام : « كان زكريا عليه السلام نجارا » .

ولا يستطيع العقل أن يتصور ، أن نبيا قضى صباه وشبابه ، وكهولته وشيخوخته فى صميم محيط العمال ، يعمل معهم بيده ، ويشجعهم بقوله ، ويثنى على حرفهم بالذى هو خير ، ويشرع لهم حقوقهم .. لا يستطيع العقل أن يتصور أن نبيا هـذا شأنه كان يدعو أتباعه إلى اعتزال الحياة ، والفرار من محيط العمل إلا أن يكون عقل طفل أو معتوه .

الاسلام وتخدير الشعوب :

ومما يرجفون به كذلك ، أن الأنبياء — ومنهم محمد طبعا — إن هم إلا رجال اصطنعهم الرأسماليون لتخدير الشعوب والعمال ، وتسكينهم عن المطالبة بحقوقهم . . ! !

فهؤلاء المرجفون — عليهم لعنة الله — لم يكفهم التضليل بتحريف الكلم عن مواضعه ، فراحوا يلصقون بخلاصة خلق الله أبشع التهم ، ويجردونهم من خصائص النبوة . . . ثم من خصائص

الإنسانية الفاضلة . . بل من خصائص البشر العادى ، ثم ينزلون بهم إلى أسفل درك ، فيجعلونهم مأجورين لأهل الترف والمال .. مأجورين لهم فى الكذب ، والخيانة ، يموهون بهما على الشعوب المظلومة ليصرفوها عن حقوقها ، ويحملوها على الرضا بما هى فيه . ! ! !

وإن مجرد نسبة هذه التهم إلى هؤلاء الغر الذين أضاءوا الدنيا فى أحلك ظلماتها ، ليحكم بكذب الذين افتروها وقذارتهم . . . فإن الضمير الكريم ليقشعر من تصورها ويستنزل لعنة الله على من فكروا فى نسبتها إلى الخلاصة النقية من خلق الله فى هذه الأرض !

فهل تصدق هذه الفرية على إبراهيم ، وهو الذى ألقاه الرأسماليون وأنصاف الآلهة فى النار بعد أن حاج الذى قال أنا أحيى وأميت فأفحمه وألجمه وأخرس لسانه ؟

أو هل تصدق على موسى الذى نازل من قال أنا ربكم الأعلى ؟

أو عيسى عليه السلام حين تآمر عليه الاستعمار الرومانى مع مع الخونة وتقديمه ليصلب ؟

أو هل تصدق على محمد وهو الذى رفع السيف مع من معه من العمال والفقراء والمستضعفين فى وجوه كسرى ، وقيصر ، وأبى لهب ، وأبى جهل وغيرهم من أئمة الجور والطغيان ؟

هل كان محمد عليه السلام يهب بهذه الكتيبة من العمال فى وجوه هؤلاء الطغاة لأنه يريد تخديرها لهم وتسكينها لإذلالهم ، أتعتبر هذه الحركات المسلحة تخديراً للعمال وتنويماً لهم عن حقوقهم ؟ إلا إن كانت هذه الغزوات التى خلد فيها العمال المؤمنون أروع المثل فى مكافحة الظلم والطغيان والاستبداد والأنانية والإباحية والإلحاد ، إن كانت هذه الغزوات العمالية المسلحة التى قادها النبى تعتبر تنويما للشعوب وتخديراً للعمال ، فإننا لنرجو لحركاتنا الشعبية وهيئاتنا العمالية مثل هذا التخدير الذى اندكت به صروح الظلم ، وارتفعت به ألوية العدالة الإنسانية فى شعوب المشرق والمغرب لأول مرة فى تاريخ البشر .

عمال يسودون :

إن تاريخ هذه الكتيبة المحمدية الموفقة يتولى الرد على هؤلاء الخونة الذين استأجرهم دعاة الهدم والإلحاد .. يتولونه بتاريخهم وسيرهم المجيدة اللامعة !! .. هم حفنة من العمال الفقراء منهم خباب بن الأرت الحداد ، وعبد الله بن مسعود الراعى ، وسعد ابن أبى وقاص صانع النبال ، وبلال بن رباح العبد الخادم ، وإخوان لهم على هذه الشاكلة الفقيرة المستضعفة .. ألا ما أشبه الليلة بالبارحة !! كان المستكبرون يعدون عليهم ، ويظلمونهم حقهم ، ويغرون السفهاء بهم لفقرهم وضعفهم ولمبادئهم القويمة

التى يستمسكون بها ويدعون الناس إليها ، كانت هذه الحفنة هى نواة الجماهير الضخمة الخصيبة التى زعموا أن رسول الله يخدرها ويسكنها لمصلحة الرأسماليين ! ماذا فعل المخدر بهذه الحفنة ياهؤلاء ؟

لقد سجل القرآن ما كانوا عليه من هوان وقلة ثم ماصاروا إليه من جاه وعزة ، فقال سبحانه : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض .. تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم .. وأيدكم بنصره .. ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » .. لقد كانوا قلة فكثروا ، وكانوا مستضعفين فانتصروا ، وكانوا فقراء لاصقين بالتراب ففتحت لهم كنوز الأرض وخزائن الدنيا ؛ هذا ماسجله القرآن لهذه الحفنة العاملة ، وهو ماسجله التاريخ ، ولا حيلة فى إنكاره ، أو إخفاء أنواره . وعهدنا بالمخدر المأجور ياهؤلاء أن يستولى على الكثرة فينتهى بها إلى القلة ؛ ثم ينتهى بالقلة إلى الفناء .

أما أن يستولى على القلة فتغدو بعون الله ، جمهرة غليظة ضخمة . ثم يسمى بعد ذلك مخدرا ، فتلك دعوى لا يستعلن بها إلا ممسوخ العقل ممسوخ الأدمية .

وعهدنا بالمنوم ، يستولى على الجموع القوية المخوفة ، فلا يزال يلعب بها لعبه ويبذر فيها بذوره ، ويسق شعلها بالماء لا بالنفط حتى يصير الجمر المتقد رمادا لا وميض فيه ولا خوف منه ، أما أن يستولى على المتفرقين فيجمعهم والضعفاء الهامدين فيجعل منهم الشهب المحرقة والسيول المتدفقة ، والقوة الخارقة التى تنتصر بالرعب على مسيرة شهر ، ثم يقال إن نومهم لأهل الظلم والبغى ،

فهى ضلالة لا تجد من يعلنها إلا فى هذا القطيع الشائه الممسوخ

وماذا كذلك فى تحذير رسول الله للجماعات ؟

إنه نوم الفقراء لأهل الغنى والمال ويكفيك على هذا برهاناً أن قد شرع لهم حقوقاً مقدسة فى أموال هؤلاء الأغنياء ثم وكل إلى السيف أن ينتقذها من رقابهم كلما جحدوها . . ونوم الفقراء لأنه انتقل بهم من الفقر المدقع إلى القصور الشامخة والثراء الواسع على ما تثبته حقائق التاريخ

والان هل هى معجزة غيرت حال هؤلاء غير الحال ؟ أو هو سحر أظهرهم للناس فى صور الملوك والأقيال ؟ أو هى المصادفة التى تواتى صاحبها برمية من غير رام ؟

لم تكن معجزة ، ولم يكن سحر ، ولم تكن مصادفة ، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقائد الذى يقود الشعوب على غير ما رسم الله من سنن الوجود .. وسنن الوجود مقدمات ونتائج ، وأسباب ومسببات ، وسبل تفضى إلى عواقب لا محالة .. وقد رسم له ربه فيما رسم « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » فماله لا ينهض إلى هذه الخلافة ، وماله لا يعلم أصحابه أن يؤدوا مراسيم هذه السيادة ؟ والدرس كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى ميزان الحقيقة : الإيمان .. والعمل !

الإيمان بالمثل الفاضلة . . والمعانى الروحية الكريمة أو الإيمان بالله واليوم الآخر .

ثم العمل النافع الذى يستمد روحه من هذه المثل فإذا اجتمع هذا الإيمان إلى العمل الطيب المثمر كانت النتيجة التى لابد منها . . النتيجة التى يرجوها ويحبها كل رجل نبيل فاضل وكل أمة نبيلة فاضلة ، خلافة فى الأرض . . وتمكين لما تعتنق من مبادىء الحق

أما الإيمان وحده فهو من أمانى العاجزين ولا نصيب لصاحبه إلا الحرمان والهوان .

وأما العمل وحده فهو سبيل الجحيم وسنة الشياطين .. وما نظن جيلا من الأجيال عمل ما عملت أوروبا ، ولكن ما نظن جيلا من الأجيال كذلك محق الله البركة من عمله وأذاقه الوبال بما صنعت يداه كما عهدنا بأوروبا ، ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم ، فلابد للإيمان من عمل ، ولابد للعمل من إيمان ، وهذا ما جاء به الدين وطبقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا القلة كثرة ، وإذا الضيق سعة وبسطة وإذا الضعف المهين قوة ومنعة وتلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أيها الناس لقد أمر الدين بالعمل وها أنتم هولاء ترونه يسمو بآمال أصحابه ، فلا يرضى لأحدهم أن تكون همته رغيفا يأكله ، أو لباسا يستره ، أو درهما يكنزه — بل هيمنة على أرض الله ، وخلافة كريمة على ما فيها من كنوز وأموال ، وقياما على شعوبها بمبادىء العدل والخير والسلم .. وليس وراء ذلك أمل لآمل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

فهرست

إهداء الكتاب ٢ مقدمة الطبعة الثانية ٣ مقدمة الطبعة الأولى ٩

الباب الأول : مع النزل :

خلاصة وافية لمعنى الملكية وعناصر العدالة الاجتماعية ١٢ — ٣٤

الله خالق الأرض . ليس لأحد منا فضل فى خيرات الأرض فهى من الله للناس جميعاً . قصة تحريم الملكية والأجور عند الشيوعية . اصطدام هذا التحريم بغرائز البشر وسنن الإجتماع . يجب أن يكفل المجتمع لكل عامل أن يأخذ ثمر ما سعى . وجوب كفالة المريض ، والعاطل ، والشيخ القاعد ، واليتيم ، ومن تجعلهم النوازل فى حكم غير القادرين . ملكيتنا للمال قائمة على ملكية الله له .

الباب الثانى : العمل والعمال (٣٦ — ١٥٨)

مائدة وقانون ٣٥ — ٣٩ . ليست الأرض كالجنة يطاف فيها على أصحابها بالخير وهم على الأرائك . القرآن يقرر وجوب العمل .. النص على بذل أقصى مافى الطاقة . جعل لكم الأرض ٣٩،٤١ . الفرق بين الذى يخدم الأرض ، والذى جعلت الأرض لخدمته . بين العمران المادى والروحى . الدين يحث على العمل ٥٩ ، ٦٤ نصوص من الأحاديث تحث على الزراعة ، والصناعة ، والتجارة . الرسول ينشىء سوقا إسلامية لتحرير الاقتصاد الإسلامى من استغلال اليهود . الدين يقدس العمل ٦٤ ، ٦٦ إذا عمل المرء ليكف نفسه فهو فى سبيل الله . عمارة الأرض من الشعائر الواجبة .

العمل .. هو ثمن الحياة ٦٦، ٧٠ . لصوص الحياة يأكلون ولا يعملون . العمل . . حق لكل إنسان ٧٠ ، ٨٠ مسئولية الدولة عن إيجاد عمل للعاطل . رعاية الدولة للعمال تعلمهم حب الوطن . انصاف الآلة فى مصلحة معمل. الرسول يقرر حق العاطل فى العمل . مبدأ تقدير الأجور ٨٠ ، ١٠٢ . وجوب تعيين قيمة الأجرة . العمال الذين يعملون لحساب أنفسهم . حقوق العمال الذين يعملون مع صاحب العمل فى بيته . الأخوة هى العلاقة الروحية بين العامل وصاحب العمل . العمل الشريف لا ينقص من قدر صاحبه ولو كان خادما فى منزل . موسى عليه السلام خرج من بيت مخدومه ليحمل رسالة التحرير . الحد الأدنى للأجر . مراعاة مستوى بيئة كل عامل فى ذلك . لا يقل الحد الأدنى عن الكفاية من الطعام واللباس ، والمسكن . الإسلام يكفل لمن لايستطيع الزواج أن يتزوج . ويقرر حقوقا أخرى . الإسلام وتحديد ساعات العمل . الإسلام والأجور الإضافية . آفات العمل ١٠٢ ، ١٤٧ . الإسلام يحارب استعباد العمال بأكل حقوقهم . عمر يضع قدمه على خدود الظلمة . شركاتنا وأسواق النخاسة . ماذا يلقى العامل فى الشركات الكبرى ؟. الشركات تجعل القوانين العمالية حبراً على ورق . أرباب الجاه وعضوية الشركات . التفاتيش أو أعشاش الشيوعية . معنى كلمة « تفتيش » . عيشة البؤس والجهل والمرض فى هذه التفاتيش . تفيش سخا نموذج لحياة القرون الوسطى . الصفقات الكبرى لتأجير الأراضى . لا يستأجرون الأرض ، ولكن يتاجرون فى الأحرار عقود الإيجار البيضاء . كلمة أخيرة ١٤٧ ، ١٥٨ . العمل والزهد . الإسلام وتحذير الشعوب .

AUG 2 3 1977

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU55320813
BP173.75 .K482
al-Islam :

BP
173.75
.K482